

قِصَصٌ تَارِيخِيَّةٌ
لِلْمَطلوبِين
(هديةٌ للـ ٢٦)
لا إله إلا الله محمد رسول الله
كتبه مُحبُّ المطلوبين
ابو جندل الأزدي
من جزيرة العرب
يا فتيةً قد طلَّقوا الدنيا
عبد العزيز المقرن
راكان الصيخان
خالد علي حاج
كريم المجاطي
صالح العوفي
ابراهيم الريس - رحمه الله
سعود العتيبي
فارس الزهراني
عيسى عوشن
عبدالمجيد المنيع
طلال العنبري
الشيخ عبدالله الرشيد
أحمد الفضلي
سلطان العتيبي
عبدالله السبيعي
فيصل الدخيل
منصور فقيه
مصطفى مبارك
بندر الدخيل
ماجد الشهري
عبدالرحمن يازجي
حسين الحسكي
خالد القرشي
طالب آل طالب
ناصر الراشد
طلال عنبري

يا فتيةٌ قد طلّقوا الدنيا[1]

شهداء أحسبُ أنكم شهداء ... ودماؤكم علم لنا وسناء
شهداءُ أبكيكم وحُق لِيَ البكا ... ومثالكم في دينهم غرباء
شهداء تبكيكم ربوع جزيرةٍ ... قد حط رحلَهمُ بها الأعداء
شهداء يبكيكم قباً تبكيكمُ ... بدرٌ وطيبةُ والربى الدهناء
شهداء تبكيكم مظلةُ أحمد ... وبكاؤها من ذا المصابِ دماء
شهداء إن كانوا مضوا بجسومهم ... عنا فهم بفعالهم أحياء
شهداء قد خلعوا ثياب الذل قد ... حلوا مكاناً دونه العلياء
شهداء قد صدعوا بحق الله في ... أمر خشى صدعاً به عُلماء
شهداء قد قُتِلوا وقد قتلتْهُمُ ... فئةُ الخنا وقُضاتُها الجهلاء
شهداء قد رفضوا خيانة دينهم ... دين النبيِّ محجةٌ بيضاءُ
يا فـــتيةً لله درُّ نفوسهم ... حُيِيتمُ لا نـــامتِ الجبناءُ
يا فـــتية بذلوا النفوسَ نجابة ... لله لما غـــابت النجباء
يا فتية أحيوْا مشاعر أمةٍ ... تاريخها في التضحيات ضياء
يا فتية قد سطروا بدمائهم ... ماذا تكون براءة وولاء
يا فتية قد طلقوا الدنيا ولم ... تفتنهمُ الغيداءُ والحسناء
سنَّيتمُ والله أفـــضلَ سنةٍ ... لكم لأجر العامـــلينَ وراءُ
يا ليتني قد كنت فيكم شعرةً ... يا أسوةً في الخير يا فضلاء
قد نلتم الفردوس أحسبكم ألا ... طوبى لكم طوبى أيا سعداء
فسقتكم الرحمات والغفران من ... ربٍ كريمٍ ديمة هطلاءُ
يا فـــتية لّما رآهم نايفُ ... والفهدُ تنـــهش روحه الأدواء
صارت ملامحُهُ من الذعر الذي ... يسري به وكأنهُ حِرباءُ
لا تفرحوا آل السعود بعرضهم ... في شاشة التلفاز يا عملاء
فلَيحيينَ بِعَرضهم جيلٌ كما ... أحْيا الغلامُ الناسَ يا بلهاء
جيلٌ تقلد سيفه لن ينثني ... حتى تعود الأمة الغراء
حتى تعود القبلتان وأرضنا ... وتُزاح عنا تلكمُ الظّلماء
هُبوا ولبوا فتية الإسلام قد ... آن الأوان لأن يعاد بناء

1- من شعر أبي عبد الله الزليطني.

آن الأوان لأن يراكم ربكم صدق اللقا ولتهنأ الشهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا وأوضح لهم طرق الهداية وجعل إتباع الرسول عليها دليلا واتخذهم عبيدا له فأقروا له بالعبودية و لم يتخذوا من دونه وكيلا وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا والحمد لله الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا واختص هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى ويحيون بكتابه الموتى فهم أحسن الناس هديا وأقومهم قيلا فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه ومن مبتدع في دين الله بشهب الحق قد رموه جهاداً في الله وابتغاء مرضاته وبياناً لحججه على العالمين وبيناته وطلبا للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته فحاربوا في الله من خرج عن دينه القويم وصراطه المستقيم الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلعوا أعنة الفتنة وخالفوا الكتاب واختلفوا في الكتاب واتفقوا على مفارقة الكتاب ونبذوه وراء ظهورهم وارتضوا غيره منه بديلا أحمده وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه وأستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب له غيره ولا إله له سواه وأستهديه سبل الذين أنعم عليهم ممن اختاره لقبول الحق وارتضاه واشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه وأستغفره من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه وأعوذ بالله من شر نفسي وسيئات عملي استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطاياه وأعتصم به من الأهواء المردية والبدع المضلة فما خاب من أصبح به معتصما وبحماه نزيلا وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أشهد بها مع الشاهدين وأتحملها عن الجاحدين وأدخرها عند الله عدةً ليوم الدين وأشهد أن الحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وأشهد أن محمداً عبده المصطفى ونبيه المرتضى ورسوله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى أرسله رحمة للعالمين وحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل وافترض على العباد طاعته وتعظيمه وتوفيره وتبجيله والقيام بحقوقه وسد إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه فشرح له صدره ورفع له ذكره وعلم به من الجهالة وبصر به من العمى وأرشد به من الغي وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً فلم يزل قائما بأمر الله لا يرده عنه راد داعيا إلى الله لا يصده عنه صاد إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها وتألفت القلوب بعد شتاتها وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار فلما أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على عباده المؤمنين استأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى من كرامته والمحل الأرفع الأسنى من أعلى جناته ففارق الأمة وقد تركها على المحجة البيضاء التي لا يزيغ

عنها إلا من كان من الهالكين فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة دائمة بدوام السماوات والأرضين مقيمة عليهم أبدا لا تروم انتقالا عنهم ولا تحويلا ، أما بعد ..

فإلى المجاهدين الذين حملوا على عاتقهم تغيير هذا الواقع الكئيب إليهم وهم قليلٌ مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس إليهم أقول: إن التاريخ يعيد نفسه وسنة الله تمضي لا يستطيع أحدٌ أن يوقفها ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾(الأحزاب:62) ﴿ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ (فاطر: من الآية43) ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾ (الفتح:23) ﴿ **سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾ (الاسراء:77) ، وبما أنكم قد عزمتم على التغيير وقلب هذه الأنظمة الكافرة التي تحكم المسلمين فلا بد أن تضعوا في الحسبان أن الواقع كئيبٌ جداً أنظمةٌ كافرة متسلطة تملك المال والإعلام والشيوخ والموارد وفرقٌ وأحزابٌ تملأ العالم الإسلامي ما بين فِرَقٍ وأحزابٍ كافرة إلى ضالة إلى مبتدعة إلى منهزمة .....الخ والمسلمون قد عاشوا عقوداً متطاولة تحت هذا الذل والإستعباد فهم بحقٍ جيل هزيمة وأنتم جيل التغيير وكما سار أسلافكم محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم فسيروا فقد أتوا في واقع كئيب أيضاً وأوضاع مزرية للبشرية فاستطاعوا بفضل الله عز وجل أن يقلبوا واقعهم وأن يقفوا وقفة رجل واحد في وجه الكفر والظلم والطغيان وفي سنوات معدودة فتحوا جزيرة العرب وثبّتوا أركان دولة الإسلام ثم اتجهوا فاتحين للعالم وفي أقل من نصف قرن وإذا بدولة الإسلام تمتد من الهند والسند والصين شرقاً إلى المغرب الأقصى والأندلس غرباً.

لم يأت ذلك من فراغ بل وطّنوا نفوسهم على مشاق الطريق فطوردوا وعُذبوا وسجنوا وقُتلوا وفُرّق بينهم وبين أهلهم وأموالهم ثم كانت العاقبة لهم وها هو التاريخ يعيد نفسه فأنتم أحفاد الصحابة على نهجهم بإذن الله سائرون ولطريقتهم في التغيير متبعون فاصبروا على كل التبعات والمشاق التي تواجهونها والنصر قريب بإذن الله فحذار حذار من النكوص أو التبديل وأدعو الله الثبات﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً * وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**) (الأحزاب21:23) .

يقول سيد قطب رحمه الله في كتاب (هذا الدين): (يوم جاء الإسلام أول مرة وقف في وجهه واقع ضخم واقع الجزيرة العربية، وواقع الكرة الأرضية!.. وقفت في وجهه عقائد وتصورات؛ ووقفت في وجهه قيم وموازين؛ ووقفت في وجهه أنظمة وأوضاع؛ ووقفت في وجهه مصالح وعصبيات..

كانت المسافة بين الإسلام يوم جاء وبين واقع الناس في الجزيرة العربية وفي الكرة الأرضية، مسافة هائلة سحيقة، وكانت النقلة التي يريدهم عليها بعيدةٌ بعيدة...

وكانت تسند الواقع أحقاب من التاريخ؛ وأشتات من المصالح؛ وألوان من القوى؛ وتقف كلها سداً في وجه هذا الدين الجديد؛ الذي لا يكتفي بتغيير العقائد والتصورات، والقيم والموازين، والعادات والتقاليد، والأخلاق والمشاعر... إنما يريد كذلك ويصر على أن يغير الأنظمة والأوضاع، والشرائع والقوانين، وتوزيع الأموال والأرزاق. كما يصر على انتزاع قيادة البشرية من يد الطاغوت والجاهلية، ليردها إلى الله وإلى الإسلام!.

ولو أنه قيل لكائن من كان في ذلك الزمان أن هذا الدين الجديد الذي يحاول هذا كله، في وجه ذلك الواقع الهائل، الذي تسنده قوى الأرض كلها، هو الذي سينتصر، وهو الذي سيبدل هذا الواقع في أقل من نصف قرن من الزمان، لما لقي هذا القول إلا السخرية والاستهزاء والاستنكار!

ولكن هذا الواقع الهائل الضخم، سرعان ما تزحزح عن مكانه، ليخليه للوافد الجديد. وسرعان ما تسلم القائد الجديد مقادة البشرية ليخرجها من الظلمات إلى النور، ويقودها بشريعة الله، تحت راية الإسلام!.

كيف وقع هذا الذي يبدو مستحيلاً في تقدير من يبهرهم الواقع ويسحقهم ثقله، وهم يزنون الأمور والأوضاع؟!.

كيف استطاع رجل واحد. محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم....أن يقف وحده في وجه الدنيا كلها، أو على الأقل في وجه الجزيرة العربية كلها في أول الأمر ؟ أو على الأقل في وجه قريش سادة العرب كلهم في منشأ الدعوة؟ وأمام تلك العقائد والتصورات، والقيم والموازين والأنظمة والأوضاع، والمصالح والعصبيات، ثم ينتصر على هذا كله، ويبدل هذا كله؛ ويقيم النظام الجديد، على أساس المنهج الجديد، والتصور الجديد؟

إنه لم يتملق عقائدهم وتصوراتهم، ولم يداهن مشاعرهم وعواطفهم، ولم يهادن آلهتهم وقيادتهم.. لم يتمسكن حتى يتمكن... انه أُمر أن يقول لهم منذ الأيام الأولى، وهو في مكة، تتألب عليه جميع القوى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ *وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ *وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون) .

فلم يكتف بأن يعلن لهم افتراق دينه عن دينهم، وعبادته عن عبادتهم، ومفاصلتهم في هذا مفاصلة كاملة لا لقاء فيها. بل أمر كذلك أن ييئسهم من إمكان هذا اللقاء في المستقبل. فكرر عليهم : ﴿ **وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ *وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ ... وباطراد المفاصلة في هذا الأمر، الذي لا التقاء فيه : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ .

وهو كذلك لم يبهرهم بادعاء أن له سلطاناً سرياً، ولا مزايا غير بشرية ولا موارد سرية بل أُمر أن يقول لهم:﴿ **قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الأنعام:50) .

ولم يوزع الوعود بالمناصب والمغانم لمن يتبعونه، حين ينتصر على مخالفيه قال ابن إسحاق: "كان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل في الموسم موسم الحج يقول: **"يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به".**

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري: أنه أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه. فقال رجل منهم يقال له: بيجرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب! ثم قال له: أرأيت إنْ نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: " الأمر لله يضعه حيث يشاء". قال: فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب، فإنْ أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك! فأبوا عليه"...

كيف إذن وقع الذي وقع؟ كيف قوى ذلك الرجل الواحد على قهر ذلك الواقع؟

إنه لم يقهره بمعجزة خارقة لا تتكرر. فقد أعلن ﷺ أنه لا يعمل في هذا الحقل بخارقة؛ و لم يستجب مرة واحدة لطلبهم للخوارق.. إنما وقع الذي وقع وفق سنة دائمة تتكرر كلما أخذ الناس بها واستجابوا إليها.

لقد وقع الذي وقع من غلبة هذا المنهج، لأنه تعامل من وراء الواقع الظاهري مع رصيد الفطرة المكنون. وهو رصيد كما أسلفنا ضخم هائل، لا يغلبه هذا الركام الظاهري؛ حين يستنقذ ويجمع ويوجَّه، ويطلق في اتجاه مرسوم!

كانت المعتقدات الفاسدة والمحرفة ترين على ضمير البشرية، وكانت الآلهة الزائفة تزحم فناء الكعبة كما تزحم تصورات الناس وعقولهم وقلوبهم . وكانت المصالح القبلية والاقتصادية تقوم على كواهل هذه الآلهة الزائفة، وما وراءها من سدانة وكهانة، ومن أوضاع في حياة الناس، مستمدة من توزيع خصائص الألوهية بين العباد؛ وإعطاء السدنة والكهنة حق الاشتراع للناس، ووضع مناهج الحياة!!!

وجاء الإسلام يواجه هذا الواقع كله بلا اله إلا الله. ويخاطب الفطرة التي لا تعرف لها إلهاً إلا الله ويعرف الناس بربهم الحق، وخصائصه وصفاته التي تعرفها فطرتهم من تحت الأنقاض والركام . قال الله تعالى: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ * قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ . (الأنعام 14: 19) .

ويقول سبحانه: ﴿ **قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ * وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ**

ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ * قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام 56: 65).

واستمعت الفطرة إلى الصوت القديم، الذي يخاطبها من وراء ركام الواقع الثقيل،في التيه العريض.وثابت إلى إلهها الواحد وانتصرت الدعوة الجديدة على الواقع الثقيل!

وعندما ثاب الناس إلى إله واحد.امتنع أن يعبد الناسُ الناسَ ووقف الجميع رافعي الرؤوس أمام بعضهم البعض يوم انحنت كل الرؤوس للإله الواحد القاهر فوق عباده. وانتهت أسطورة الدماء المتفاضلة، والأجناس المتفاضلة، ووراثة الشرف والحكم والسلطان...

ولكن كيف وقع هذا ؟

لقد كان هناك واقع اجتماعي، ووراءه مصالح طبقية وعنصرية، مادية ومعنوية. واقع سائد في الجزيرة العربية، وسائد في الأرض من حولها. واقع ليس محل اعتراض أحد، لأن المنتفعين به لا يسأمونه، والرازحين تحته لا ينكرونه!.

كانت قريش تسمى نفسها "الحمس" وتفرض لنفسها حقوقاً وتقاليد ليست لسائر العرب. وتقف في الحج بالمزدلفة حين يقف الناس جميعاً بعرفات! ويقيمون على هذه الامتيازات منافع اقتصادية يفرضونها على سائر العرب. فيحتِّمون عليهم ألا يطوفوا بالبيت إلا في ملابس يشترونها من قريش؟ وإلا طافوا بالبيت عراة؟

وكانت الأرض كلها من حول الجزيرة تعج بالتفرقات القائمة على اختلاف الدماء والأجناس وتفاضلها...

كان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحرف. وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر، ولا تصل بينها صلة. وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير. وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه. ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها. وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم. وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها على بعض تميزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع.

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم الهي. وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون، وفوق الانتقاد، وفوق البشر، لا يجري اسمهم على لسانهم، ولا يجلس أحدهم في مجلسهم؛ ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ،وليس لإنسان حق عليهم. وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعمهم فإنما هو صدقة وتكرم، من غير استحقاق، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة. وخصصوا بيتاً معيناً ــ هو بيت الكياني ــ فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج، ويجبوا الخراج. وهذا الحق يتنقل فيهم كابراً عن كابر، وأباً عن جد، لا ينازعهم ذلك إلا ظالم، ولا ينافسهم إلا

دعيٌّ نذل،. فكانوا يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالك، لا يبغون به بدلاً، ولا يرون عنه محيصاً . فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً وإذا لم يجدوا رجلاً ملكوا عليهم امرأة فقد ملكوا بعد "شيرويه" ولده "أردشير" وهو ابن سبع سنين وملك "فرخ زاد خسرو بن كسرى أبرويز" وهو طفل وملكوا بوران بنت كسرى وملكت كذلك ابنة كسرى ثانية يقال لها: "أزرمى دخت" و لم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم. قائداً كبيراً، أو رئيساً من رؤسائهم، مثل "رستم" و "جابان" وغيرهما. لأنهم ليسوا من البيت الملكي!.

وكان نظام الطبقات في الهند من اعنف وأبشع ما يصنع الإنسان بالإنسان.

"وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني سياسي اتفق عليه، وأصبح قانوناً رسمياً، ومرجعاً دينياً، في حياة البلاد ومدنيتها، وهو المعروف الآن: "منوشاستر"...

"يقسم هذا القانون الأهالي إلى أربع طبقات متميزة. وهي:

1ــ **البراهمة**: طبقة الكهنة ورجال الدين.

2ــ **شترى**: رجال الحرب

3ــ **ويش**: رجال الزراعة والتجارة.

4ــ **شودر** : رجال الخدمة .

ويقول "منو" مؤلف هذا القانون:

"إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه، وشترى من سواعده وويش من أفخاذه، والشودر من أرجله! ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم "ويد" أو تقديم النذور للآلهة. وتعاطي الصدقات. وعلى "الشترى" حراسة الناس، والتصدق وتقديم النذور ودراسة "ويد" والعزوف عن الشهوات. وعلى "ويش" رعي السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة "ويد" والتجارة والزراعة. وليس "لشودر" إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث!.

"وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة. فقد قال : إن البراهمة هم صفوة الله، وهم ملوك الخلق، وان ما في العالم هو ملك لهم، فانهم أفضل الخلائق وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر من غير جريرة ما شاءوا لأن العبد لا يملك شيئاً، وكل ماله لسيده وأن البرهمي الذي يحفظ "رك ويد" (الكتاب المقدس) هو رجل مغفور له، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله: ولا يجوز للملك حتى في اشد ساعات الاضطرار والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية، أو يأخذ منهم إتاوة، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً، وان استحق برهمي القتل، لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل!.

" أما الشترى فان كانوا فوق الطبقتين (ويش وشودر) ولكنهم دون البراهمة بكثير. فيقول: "منو" إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشترى الذي ناهز مائة، كما يفوق الوالد ولده!.

" أما شودر "المنبوذون": فكانوا في المجتمع الهندي بنص هذا القانون المدني الديني أحط من البهائم، وأذل من الكلاب. فيصرح القانون بأن "من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة، وليس لهم اجر أو ثواب بغير ذلك وليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدخروا كنزاً فان ذلك يؤذي البراهمة! وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يدا أو عصا ليبطش به قطعت يده، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله، وإذا هم أحد من المنبوذين أني يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوي إسته، أو يحرمه وينفيه من البلاد. وأما إذا مسه بيد، أو سبه، فيقتلع لسانه. وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتاً فائراً وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة. ورجل من الطبقة المنبوذة، سواء "!!!.

أما الحضارة الرومانية الشهيرة فقامت على أساس الترف، الذي يوفره ثلاثة أرباع سكانها من العبيد، للربع الباقي من الأشراف! وعلى أساس التفرقة في نصوص القانون بين السادة والعبيد. وبين الطبقات الكريمة والوضيعة:

جاء في مدونة جوستنيان القانونية الشهيرة:

" ومن يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء، فعقوبته إن كان من بيئة كريمة مصادرة نصف ماله، وإن كان في بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض".

وبينما كان هذا الواقع سائداً في الأرض كلها، كان الإسلام يخاطب الفطرة من تحت ركام الواقع. الفطرة التي تنكر هذا كله ولا تعرفه وكانت استجابة الفطرة لنداء الإسلام أقوى من هذا الواقع الثقيل.

استمعت الفطرة إلى الله سبحانه يقول للناس جميعاً : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾(الحجرات: من الآية13) .

واستمعت إليه سبحانه يقول لقريش خاصة : ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاس**﴾ (البقرة: من الآية199).

واستمعت إلى رسول الله ﷺ يقول للناس جميعاً: "يا أيها الناس إن ربكم واحد، وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله اتقاكم وليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضلٌ إلا بالتقوى ".

واستمعت إليه يقول لقريش خاصة: **"يا معشر قريش.. اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئاً، ويا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب، ما أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً"** متفق عليه.

استمعت الفطرة إلى النداء المستجاب، وأزاحت عنها ركام الواقع وانطلقت مع المنهج الإلهي.. ووقع ما وقع وفق سنة الله المطردة، القابلة للوقوع في كل حين.

وكان النظام الربوي هو السائد في الجزيرة العربية، وعليه يقوم اقتصادها الأساسي ولا يحسبن أحد أنها كانت مجرد معاملات فردية في حدود ضيقة. فقد قامت لقريش تجارة ضخمة مع الشام في رحلة الصيف، ومع اليمن في رحلة الشتاء وكانت توظف في هذه التجارة رؤوس أموال قريش. ولا يجوز أن ننسى أن قافلة أبي سفيان التي ترصد لها المسلمون في غزوة بدر، ثم أفلتت منهم، وقسم الله لهم ما هو خير منها، كانت تحوي ألف بعير موسوقة بالبضائع!

ولو كان الربا مجرد معاملات فردية محدودة، لا نظاماً شاملاً للحياة الاقتصادية ما استحق من الله سبحانه هذه الحملة المفزعة المتكررة في القران، ولا متابعة تلك الحملة من الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه!.

هذه الأموال، وهذه الحركة التجارية، وهذا الاقتصاد الذي يقوم عليها، كان يقوم كله على أساس النظام الربوي. وفيه تجمعت اقتصاديات البلاد تقريباً قبيل البعثة، فكذلك كانت تقوم الحياة في المدينة. وأصحاب اقتصادها هم اليهود. والربا قاعدة اقتصاد اليهود!.

وكان هذا واقعا اقتصادياً تقوم عليه حياة البلاد!.

ثم جاء الإسلام.. جاء ينكر هذا الأساس الظالم الجارم؛ ويعرض بدله أساساً آخر: أساس الزكاة والقرض الحسن والتعاون والتكافل .

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ .

ووجدت الفطرة أن دعوة الله خير مما هي فيه واشمأزت من الأساس الهابط الذي يقوم النظام الربوي عليه ومع مشقة الانتقال في الأوضاع الاقتصادية التي تقوم عليها حياة الناس، فقد كانت استجابة الفطرة أقوى من ثقل الواقع ، وتطهر المجتمع المسلم من تلك اللوثة الجاهلية. وكان ما كان. وفق سنة الله التي تتكرر كلما دعيت الفطرة فانتفضت من تحت الركام والأنقاض!.

ونكتفي بهذه الأمثلة الثلاثة من مغالبة الفطرة للواقع، وانتفاضها من تحت الركام والأنقاض، وانتصارها على الواقع الخارجي الذي أنشأته الجاهليات... وهي تمثل واقع العقيدة والتصور وواقع الأوضاع والتقاليد... وواقع الاقتصاد والتعامل... وهي أقوى ألوان الواقع الذي يراه من لا يدركون قوة العقيدة، وقوة الفطرة، وكأنه هو الحقيقة الساحقة التي لا قبل بها لفطرة ولا عقيدة!.

إن الإسلام لم يقف مستسلما عاجزاً مكتوف اليدين أمام هذا الواقع ولكنه ألغاه، أو بدله، وأقام مكانه بناءه السامق الفريد، على أساسه القوي العميق.

وما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى فقد حدث ما حدث وفق سنة جارية، ولا وفق معجزة خارقة وقد قام ذلك البناء على رصيد الفطرة المدخر لكل من يستنقذ هذا الرصيد، ويجمعه ، ويوجهـــه، ويطلقـــه في اتجاهــه الصحيح.

والبشرية اليوم قد تكون أقدر على هذا الاتجاه الصحيح، بما استقر في تاريخها وفي حياتها من آثار ذلك المد الأول، الذي واجه أقسى المعارضة. ثم انساح في طريقه، وخلف من بعده أعمق الآثار..).

كتبه مُحبُّ المطلوبين

أبو جندل الأزدي

1424/11/10هـ

صرف الله عنه أسماع وأبصار الطواغيت وأذناهم

نبي الله موسى عليه السلام يخرجُ خائفاً يترقّب

أخذت قصة موسى صلى الله عليه وسلم نصيباً كبيراً من كتاب الله عز وجل منذ طفولته إلى شبابه وبعثته إلى مواجهة فرعون ...الخ وكان من بين تلك القصص قصة هروبه من فرعون وملائه حين جاءه من أخبره بالمؤامرة التي تتم في أروقة أجهزة فرعون الأمنية فلم يستسلم بل خرج مباشرة من المدينة واتجه تلقاء مدين ويسَّر الله أموره فيها فتزوج وبقي فيها إلى أن تم الأجل وهو أكثر من ثمانِ سنوات ثم بعثه الله عز وجل ووهب له حكما وعلما ﴿ **فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ (الشعراء **21**) والقصة فيها من الدروس والعبر ما يحتاجه كل من يريد التغيير الجذري لواقع الأمة الإسلامية والنهوض بالمسلمين من وطأة الذل التي يعيشونها ، يقول الله عز وجل : ﴿ **وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ (القصص 20 : 28) .

يقول ابن كثير رحمه الله : (فأرسل فرعون الذبّاحين ليقتلوا موسى, فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوقم, فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة, فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره, وذلك من الفتون ....فخرج موسى متوجهاً نحو مدين و لم يلق بلاء قبل ذلك, وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل, فإنه قال: ﴿ **عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ** ﴾ يعني بذلك حابستين غنمهما, فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما نسقي من فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء, فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما, وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال: ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطاناً, فقال: إن لكما اليوم لشأناً, فأخبرتاه بما صنع موسى, فأمر إحداهما أن

تدعوه, فأتت موسى فدعته, فلما كلمه قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان, ولسنا في مملكته, فقالت إحداهما: ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** ﴾ فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا, لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه, وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له, فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك, ثم قال لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق, فلم يفعل هذا إلا وهو أمين, فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت, فقال له: هل لك ﴿ **أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ ؟ **ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة وكانت سنتان عدة منه, فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً).**

ويقول سيد قطب رحمه الله حول هذه الآيات: (رجل يجيء إلى موسى من أقصى المدينة , يحذره ائتمار الملأ من قوم فرعون به , وينصح بالهرب من المدينة إبقاء على حياته: ﴿ **وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾.

إنها يد القدرة (قدرة الله) تسفر في اللحظة المطلوبة , لتتم مشيئتها !

لقد عرف الملأ من قوم فرعون , وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلة موسى . وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر . فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد , والانتصار لبني إسرائيل . وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التآمر . ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء . فانتدبت يد القدرة واحدا من الملأ . الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه , والذي جاء ذكره في سورة غافر انتدبته ليسعى إلى موسى ﴿ **مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ**﴾ في جد واهتمام ومسارعة , ليبلغه قبل أن يبلغه رجال الملك:﴿ **إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ .

﴿ **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ .

ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية . التوفز والتلفت . ونلمح معها , التوجه المباشر بالطلب إلى الله , والتطلع إلى حمايته ورعايته , والالتجاء إلى حماه في المخافة , وترقب الأمن عنده والنجاة: ﴿ **رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾.

ثم يتبعه السياق خارجا من المدينة , خائفا يترقب , وحيدا فريدا , غير مزود إلا بالاعتماد على مولاه ; والتوجه إليه طالبا عونه وهداه: ﴿ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ**﴾ .

ونلمح شخصية موسى عليه السلام فريداً وحيداً مطارداً في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالي الحجاز . مسافات شاسعة , وأبعاد مترامية , لا زاد ولا استعداد , فقد خرج من المدينة خائفا يترقب , وخرج مترعجاً بنذارة الرجل الناصح , لم يتلبث , ولم يتزود ولم يتخذ دليلا . ونلمح إلى جانب هذا نفسه

متوجهة إلى ربه , مستسلمة لــه , متطلعــة إلى هــداه: ﴿ **عَسَــى رَبِّــي أَن يَهْــدِيَنِي سَــوَاء السَّــبِيلِ** ﴾.

ومرة أخرى نجد موسى عليه السلام في قلب المخافة بعد فترة من الأمن بل من الرفاهية والطراءة والنعمى . ونجده وحيداً مجرداً من قوى الأرض الظاهرة جميعاً , يطارده فرعون وجنده , ويبحثون عنه في كل مكان , لينالوا منــه اليوم ما لم ينالوه منه طفلا . ولكن اليد التي رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا , ولا تسلمه لأعدائه أبدا . فها هو ذا يقطع الطريق الطويل , ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء : ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ من دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَــا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ .

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين . وصل إليه وهو مجهود مكدود . وإذا هو يطلع على مشـــهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة , السليمة الفطرة , كنفس موسى عليه السلام وجد الرعاة الرجـــال يـــوردون أنعامهم لتشرب من الماء ; ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء . والأولى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة , أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولا , وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما .

و لم يقعد موسى الهارب المطارد , المسافر المكدود , ليستريح , وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف . بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب:﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُمَا** ﴾ ؟.

﴿ **قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ﴾ .

فأطلعتاه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود . إنه الضعف , فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال . وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال ! وثارت نخوة موسى عليه السلام وفطرته السليمة . فتقدم لإقرار الأمر في نصابه . تقدم ليسقي للمرأتين أولا , كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة . وهـــو غريب في أرض لا يعرفها , ولا سند له فيها ولا ظهير . وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد . وهو مطارد , من خلفه أعداء لا يرحمون . ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعي المروءة و النجدة والمعروف , وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس: ﴿ **فَسَقَى لَهُمَا** ﴾.

مما يشهد بنبل هذه النفس التي صُنِعت على عين الله . كما يشي بقوته التي ترهب حتى وهو في إعياء السفر الطويل . ولعلها قوة نفسه التي أوقعت في قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمه . فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب .

﴿ **ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ** ﴾ ما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر , وأن السفرة كانت في ذلك القيظ والحر ...

﴿ **فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ .

إنه يأوي إلى الظل المادّي البليل بجسمه , ويأوي إلى الظل العريض الممدود . ظل الله الكريم المنان . بروحه وقلبه: ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ رب إني في الهاجرة . رب إني فقــير . رب إني وحيــد . رب إني ضعيف . رب إني إلى فضلك ومنِّك وكرمك فقير محووج .

ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن , والركن الركين , والظل والظليل . نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحي , والانعطاف الرفيق , والاتصال العميق: ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ .

وما نكاد نستغرق مع موسى عليه السلام في مشهد المناجاة حتى يعجل السياق بمشهد الفرج , معقبا في التعبير بالفاء , كأنما السماء تسارع فتستجيب للقلب الضارع الغريب .

﴿ **فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا** ﴾ .

يا فرج الله: ويا لقربه ويا لنداه ! إنها دعوة الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير . دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان . دعوة تحملها:﴿ **إِحْدَاهُمَا** ﴾ وقد جاءته : ﴿ **تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء** ﴾ مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال . ﴿ **عَلَى اسْتِحْيَاء** ﴾ .

في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله , يحكيه القرآن بقوله: ﴿ **إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا** ﴾ فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح ; لا التلجلج والتعثر والربكة . وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم , ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب . الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج ; إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب , ولا تزيد .

وينهي السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه , ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة , والاستجابة من موسى . ثم إذا مشهد اللقاء بينه وبين الشيخ الكبير . الذي لم ينص على اسمه . وقيل: إنه ابن أخي شعيب النبي المعروف . وإن اسمه يثرون .

﴿ **فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾.

فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن ; كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد . ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور: ﴿ **لَا تَخَفْ** ﴾ فجعلها أول لفظ يعقب به على قصصه ليلقي في قلبه الطمأنينة , ويشعره بالأمان . ثم بين وعلل: ﴿ **نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ فلا سلطان لهم على مدين , ولا يصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار .

ثم نسمع في المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة: **(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)**.

إنها وأختها تعانيان من رعي الغنم , ومن مزاحمة الرجال على الماء , ومن الاحتكاك الذي لا بد منه للمرأة التي تزاول أعمال الرجال . وهي تتأذى وأختها من هذا كله ; وتريد أن تكون امرأة تأوي إلى بيت ; امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى . والمرأةُ العفيفةُ الروحِ النظيفةُ القلبِ , السليمةُ الفطرةِ , لا تستريح لمزاحمة الرجال , ولا للتبذل الناشئ من هذه المزاحمة .

وها هو ذا شاب غريب طريد وهو في الوقت ذاته قوي أمين . رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقي لهما . وهو غريب . والغريب ضعيف مهما اشتد . ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته . فهي تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل . وهو قوي على العمل , أمين على المال . فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه . وهي لا تتلعثم في هذه الإشارة ولا تضطرب , ولا تخشى سوء الظن والتهمة . فهي بريئة النفس , نظيفة الحس ; ومن ثم لا تخشى شيئا , ولا تتمتم ولا تجمجم وهي تعرض اقتراحها على أبيها .

ولا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى . كرفع الحجر الذي يغطي البئر وكان لا يرفعه ــ فيما قالوا ــ إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل . فالبئر لم يكن مغطى , إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين , أو سقى لهما مع الرعاء .

ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشي خلفي ودليني على الطريق خوف أن يراها . أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها . . فهذا كله تكلف لا داعي له , ودفع لريبة لا وجود لها . وموسى عليه السلام عفيف النظر نظيف الحس , وهي كذلك , والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة . فالعفة تنضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع !

واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته . ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة , وميلاً فطرياً سليماً , صالحاً لبناء أسرة . والقوة والأمانة حين تجتمعان في رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تفسد و لم تلوث و لم تنحرف عن فطرة الله . فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثماني سنين . فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به .

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وهكذا في بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد ولعله كان يشعر كما أسلفنا أنها محددة , وهي التي وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى . عرضها في غير تحرج ولا التواء . فهو يعرض نكاحا لا يخجل منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يخجل , ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد , والتصنع والتكلف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة , وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة , تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ; وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم , أو لا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة ! ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نية نكاح . فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح , فيهبط الخجل المصطنع , وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة !

ولقد كان الآباء يعرضون بناهم على الرجال على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي ﷺ أو من يرغب في تزويجهن منهم . كان يتم هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل , لا تخدش معه كرامة ولا حياء . . عرض عمر رضي الله عن ابنته حفصة على أبي بكر فسكت وعلى عثمان فاعتذر , فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا طيب خاطره , عسى أن يجعل الله لها نصيبا فيمن هو خير منهما . ثم تزوجها صلى الله عليه وسلم وعرضت امرأة نفسها على رسول الله ﷺ فاعتذر لها . فألقت إليه ولاية أمرها يزوجها ممن يشاء . فزوجها رجلا لا يملك إلا سورتين من القرآن , علمها إياهما فكان هذا صداقها .

وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامي يبني بيوته ويقيم كيانه . في غير ما تلعثم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء .

وهكذا صنع الشيخ الكبير صاحب موسى فعرض على موسى ذلك العرض واعدا إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه في العمل ; راجيا بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه . و هو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله . فهو لا يزكي نفسه , ولا يجزم بأنه من الصالحين . ولكن يرجو أن يكون كذلك , ويكل الأمر في هذا لمشيئة الله .

وقبل موسى العرض وأمضى العقد ; في وضوح كذلك ودقة , وأشهد الله: ﴿**قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾.

إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها , ولا اللعثمة , ولا الحياء . ومن ثم يقر موسى العرض , ويبرم العقد , على ما عرض الشيخ من الشروط . ثم يقرر هذا ويوضحه: (أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ). . سواء قضيت ثماني سنوات أو أتممت عشرا , فلا عدوان في تكاليف العمل , ولا عدوان في تحتيم العشر ; فالزيادة على الثمانية اختيار . . ﴿ **وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾. فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين . وكفى بالله وكيلا .

بين موسى عليه السلام هذا البيان تمشيا مع استقامة فطرته , ووضوح شخصيته , وتوفية بواجب المتعاقدين في الدقة والوضوح والبيان . وهو ينوي أن يوفي بأفضل الأجلين كما فعل . فقد روي أن رسول الله ﷺ أخبر أنه:" **قضى أكثرهما وأطيبهما** " .

وهكذا اطمأن بموسى عليه السلام المقام في بيت حميه ; وقد أمن من فرعون وكيده . ولحكمة مقدرة في علم الله كان هذا الذي كان . . فلندع الآن هذه الحلقة تمضي في طريقها حتى تنقضي . فقد سكت السياق فيها عند هذا الحد وأسدل الستار . .) .

إلى أن قال رحمه الله أن الله بقدرته نقل موسى عليه السلام (خطوةً خطوة مند أن كان رضيعاً في المهد حتى هذه الحلقة . ألقت به في اليم ليلتقطه آل فرعون . وألقت عليه المحبة في قلب امرأته لينشأ في كنف عدوه . ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفسا وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحذره وينصحه

بالخروج منها وصاحبته في الطريق الصحراوي من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد . وجمعته بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر . ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف . .

هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه , ومن التلقي والتجريب , قبل النداء وقبل التكليف . . تجربة الرعاية والحب والتدليل . وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس , وتجربة الندم والتحرج والاستغفار . وتجربة الخوف والمطاردة والفزع . وتجربة الغربة والوحدة والجوع وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور . وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة , والمشاعر المتباينة , والخوالج والخواطر , والإدراك والمعرفة . . إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة .

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات ; يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملي , إلى جانب هبة الله اللدنية , ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير .

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر ــ عدا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ــ فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر , أعتى ملوك الأرض في زمانه , وأقدمهم عرشاً , وأثبتهم ملكاً , وأعرقهم حضارةً , وأشدهم تعبداً للخلق واستعلاء في الأرض .

وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمرأوا مذاقه , فمردوا عليه واستكانوا دهرا طويلا . والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن ; ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس . فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير .

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة ; انحرفوا عنها , وفسدت صورها في قلوبهم . فلا هي قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة ; ولا هي باقية على عقيدتها القديمة . ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة . والالتواءات فيها والرواسب والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسرا .

وهو في اختصار مرسل لإعادة بناء أمة , بل لإنشائها من الأساس . فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعبا مستقلا , له حياة خاصة , تحكمها رسالة . وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير .

ولعله لهذا المعنى كان عناية القرآن الكريم بهذه القصة , فهي نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة , وما يعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية . وما يعتوره من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل .

فأما تجربة السنوات العشر فقد جاءت لتفصل بين حياة القصور التي نشأ فيها موسى عليه السلام وحياة الجهد الشاق في الدعوة وتكاليفها العسيرة .

وإن لحياة القصور جوا خاصا , وتقاليد خاصة , وظلالا خاصة تلقيها على النفس وتطبعها بها مهما تكن هذه النفس من المعرفة والإدراك والشفافية . والرسالة معاناة لجماهير من الناس فيهم الغني والفقير , والواجد والمحروم , وفيهم النظيف والوسخ , والمهذب والخشن ; وفيهم الطيب والخبيث والخير والشرير . وفيهم القوي والضعيف , والصابر والجزوع . . وفيهمْ وفيهم . . وللفقراء عادات خاصة في أكلهم وشربهم ولبسهم ومشيهم , وطريقة فهمهم للأمور , وطريقة تصورهم للحياة , وطريقة حديثهم وحركتهم , وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم . .

وهذه العادات تثقل على نفوس المنعمين ومشاعر الذين تربوا في القصور ; ولا يكادون يطيقون رؤيتها فضلا على معاناتها وعلاجها , مهما تكن قلوب هؤلاء الفقراء عامرة بالخير مستعدة للصلاح , لأن مظهرهم وطبيعة عاداتهم لا تفسح لهم في قلوب أهل القصور !

وللرسالة تكاليفها من المشقة والتجرد والشظف أحيانا . . وقلوب أهل القصور ـــ مهما تكن مستعدة للتضحية بما اعتادته من الخفض والدعة والمتعة ـــ لا تصبر طويلا على الخشونة والحرمان والمشقة عند معاناتها في واقع الحياة ...فشاءت القدرة (**الصحيح** :**شاء الله بقدرته**) التي تنقل خطى موسى عليه السلام أن تخفض مما اعتادته نفسه من تلك الحياة ; وأن تزج به في مجتمع الرعاة , وأن تجعله يستشعر النعمة في أن يكون راعي غنم يجد القوت والمأوى , بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع . وأن يترع من حسه روح الاشمئزاز من الفقر والفقراء , وروح التأفف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم ; وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم ورثاثة هيئتهم ومجموعة عاداتهم وتقاليدهم . وأن تلقي به في خضم الحياة كبيرا بعد ما ألقت به في خضم الأمواج صغيرا , ليمرن على تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها . .

فلما أن استكملت نفس موسى عليه السلام تجاربها , وأكملت مرانتها ودربتها , بهذه التجربة الأخيرة في دار الغربة , قادت يد القدرة (**الصحيح**:**قاد الله بقدرته واختياره واصطفائه**) خطاه مرة أخرى عائدة به إلى مهبط رأسه , ومقر أهله وقومه , ومجال رسالته وعمله , سالكة به الطريق التي سلكها أول مرة وحيدا طريدا خائفا يتلفت . فما هذه الجيئة والذهوب في ذات الطريق ? إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق . الطريق الذي سيقود فيه موسى خطى قومه بأمر ربه . كي يستكمل صفات الرائد وخبرته , حتى لا يعتمد على غيره ولو في ريادة الطريق . فقومه كانوا في حاجة إلى رائد يقودهم في الصغيرة والكبيرة , بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير ; حتى فقدوا القدرة على التدبير والتفكير .

وهكذا ندرك كيف صُنع موسى على عين الله , وكيف أعده الله بقدرته لتلقي التكليف).

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾

يقول الله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس 83: 87).

يقول ابن كثير رحمه الله: (يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر لأن فرعون لعنه الله كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتو وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفا شديدا قال العوفي عن بن عباس ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾قال فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وروى علي بن أبي طلحة عن بن عباس في قوله ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول بني إسرائيل وعن بن عباس والضحاك وقتادة الذرية القليل وقال مجاهد في قوله ﴿إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ قال هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم واختار بن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين وفي هذا نظر لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من بني إسرائيل فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئا ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى و ﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي وأشراف قومهم أن يفتنهم و لم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكنه كان طاويا إلى فرعون متصلا به متعلقا بحباله ومن قال إن الضمير في قوله وملئهم عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد وإن كان بن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبني إسرائيل ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم

مُّسْلِمِينَ﴾ أي فإن الله كاف من توكل عليه **﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾** **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى **﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾** **﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾** **﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾** وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك **﴿فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحى وقال بن أبي نجيح وغيره عن مجاهد لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا وقال عبد الرزاق أنبأنا بن عيينة عن بن أبي نجيح عن مجاهد **﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** لا تسلطهم علينا فيفتنونا وقوله **﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾** أي خلصنا برحمة منك وإحسان **﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** أي الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوأ أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتا واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى **﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾** فقال الثوري وغيره عن خصيف عن عكرمة عن بن عباس **﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾** قال أمروا أن يتخذوها مساجد وقال الثوري أيضا عن بن منصور عن إبراهيم (وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) قال كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبوه زيد بن أسلم وكأن هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾** وفي الحديث كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى أخرجه أبو داود ولهذا قال تعالى في هذه الآية **﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** أي بالثواب والنصر القريب وقال العوفي عن بن عباس في تفسير هذه الآية قال قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقال مجاهد **﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾** لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرا وكذا قال قتادة والضحاك وقال سعيد بن جبير **﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾** أي يقابل بعضها بعضا).

ويقول سيد قطب رحمه الله في الظلال: (يسدل الستار هنا ليرفع على موسى ومن آمن معه وهم قليل من شباب القوم لا من شيوخهم ! . وهذا إحدى عبر القصة المقصودة .

ويفيد هذا النص أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بني إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار , لا مجموعة الشعب الإسرائيلي . وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى , خوفاً من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب , والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من إسرائيل . وقد

كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت , كما كان مسرفاً في الطغيان , لا يقف عند حد , ولا يتحرج من إجراء قاس .

وهنا لا بد من إيمان يرجح المخاوف , ويطمئن القلوب , ويثبتها على الحق الذي تنحاز إليه: **﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾** . .

فالتوكل على اللّه دلالة الإيمان ومقتضاه . وعنصر القوة الذي يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة أمام الجبروت الطاغي فإذا هي أقوى وأثبت . وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام . وجعل التوكل على اللّه مقتضى هذا وذاك . . مقتضى الاعتقاد في اللّه , ومقتضى إسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد ...

واستجاب المؤمنون لهتاف الإيمان على لسان نبيهم: **﴿فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا﴾**.

ومن ثم توجهوا إلى اللّه بالدعاء: **﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** . .

والدعاء بألا يجعلهم اللّه فتنة للقوم الظالمين مقصود به ألا يمكن القوم الظالمين منهم , فيظن القوم أن تمكنهم من المؤمنين باللّه دليل على أن عقيدتهم هم أصح ولذلك انتصروا وهزم المؤمنون ! ويكون هذا استدراجاً لهم من اللّه وفتنة ليلجوا في ضلالهم . فالمؤمنون يدعون اللّه أن يعصمهم من تسلط الظالمين عليهم ولو لاستدراج الظالمين .

والآية الثانية أصرح في النتيجة المطلوبة: **﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾**.

ودعاؤهم اللّه ألا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين , وأن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين , لا ينافي الاتكال على اللّه والتقوي به . بل هو أدل على التوجه بالاتكال والاعتماد إلى اللّه . والمؤمن لا يتمنى البلاء , ولكن يثبت عند اللقاء .

وعقب هذا التميز , وفي فترة الانتظار بعد الجولة الأولى , وإيمان من آمن بموسى , أوحى اللّه إليه وإلى هارون أن يتخذا لبني إسرائيل بيوتاً خاصة بهم , وذلك لفرزهم وتنظيمهم استعداداً للرحيل من مصر في الوقت المختار ; وكلفهم تطهير بيوتهم , وتزكية نفوسهم , والاستبشار بنصر اللّه:**﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** . .

وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية . وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات , وبخاصة قبيل المعارك والمشقات . ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية , ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة , تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة , وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة .

وهذه التجربة التي يعرضها اللّه على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة , ليست خاصة ببني إسرائيل , فهي تجربة إيمانية خالصة . وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي , وقد عمت الفتنة وتجبر الطاغوت , وفسد الناس , وأنتنت البيئة وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة وهنا يرشدهم اللّه إلى أمور:

اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها ـــ ما أمكن في ذلك ـــ وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها , لتطهرها وتزكيها , وتدربها وتنظمها , حتى يأتي وعد اللّه لها .

اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد . تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي ; وتـــزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح ; وتزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم في جو العبادة الطهور .

واتجه موسى عليه السلام إلى ربه , وقد يئس من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير , وأن تكون قد بقيت فـــيهم بقية , وأن يرجى لهم صلاح . اتجه إليه يدعو على فرعون وملئه , الذين يملكون المال والزينة , تضعف إزاءهمـــا قلوب الكثيرين , فتنتهي إلى التهاوي أمام الجاه والمال , وإلى الضلال . . اتجه موسى إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال , وأن يشد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان . فاستجاب اللّه الدعاء: ﴿**وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾.

﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ ينشأ عنها إضلال الناس عـــن ســـبيلك , إمـــا بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين . وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم . ووجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيراً من القلوب التي لا يبلغ مـــن يقينها باللّه أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار , وأنها كذلك ليست شيئاً ذا قيمة إلى جانب فضل اللّه في الدنيا والآخرة . وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود في عامة الناس .

ويطلب لوقف هذا الإضلال , ولتجريد القوة الباغية المضلة من وسائل البغي والإغراء , أن يطمس اللّه على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها , بحيث لا ينتفع بها أصحابها . أما دعاؤه بأن يشد اللّه على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم , فهو دعاء من يئس من صلاح هذه القلوب , ومن أن يكون لها توبة أو إنابة . دعـــاء بـــأن يزيدها اللّه قسوة واستغلاقاً حتى يأتيهم العذاب , وعندئذ لن يقبل منهم الإيمان , لأن الإيمان عند حلول العذاب لا يقبل , ولا يدل على توبة حقيقية باختيار الإنسان .

﴿**قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا**﴾....كتبت لها الإجابة وقضي الأمر .

﴿**فَاسْتَقِيمَا**﴾....في طريقكما وعلى هداكما حتى يأتي الأجل: ﴿**وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾..

فيخبطوا على غير علم , ويترددوا في الخطط والتدبيرات , ويقلقوا على المصير , ولا يعرفوا إن كانوا يسيرون في الطريق الهادي أم هم ضلوا السبيل).

﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ﴾

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً * هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾. (الكهف 16:9) .

قال ابن كثير رحمه الله: (هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار, ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى, وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف, كما قال ابن جريج عن مجاهد ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك.

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم, وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم, وأما الكهف فهو الغار في الجبل, وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون, وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلة, وكذا قال عطية العوفي وقتادة. وقال الضحاك: أما الكهف فهو غار في الوادي, والرقيم اسم الوادي, وقال مجاهد: الرقيم كان بنيانهم, ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم......(إلى أن قال)...وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب, ثم قرأ: كتاب مرقوم. وهذا هو الظاهر من الآية, وهو اختيار ابن جرير, قال: الرقيم فعيل بمعنى مرقوم, كما يقال للمقتول قتيل, وللمجروح جريح, والله أعلم. وقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه فهربوا منهم فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم, فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً أي اجعل عاقبتنا رشداً, كما جاء في الحديث "وما قضيت

لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً" وفي المسند من حديث بسر بن أرطأة عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو "**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها, وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة**".

....﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ من هاهنا شرع في بسط القصة وشرحها, فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب, وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل, ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً, وأما المشايخ من قريش, فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً, وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة يعني الحلق, فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم, فآمنوا بربهم أي اعترفوا له بالوحدانية, وشهدوا أنه لا إله إلا هو **﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾** استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص, ولهذا قال تعالى: **﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾** كما قال: **﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾** وقال **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾** وقال: **﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾** إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم, فالله أعلم, والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية, فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم, وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم, فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء, وعن خبر ذي القرنين, وعن الروح, فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية, والله أعلم.

وقوله **﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة, فإنه ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم, وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد, وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت, ويذبحون لها, وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس ، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه, فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك, وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم, ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم, عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا الله الذي خلق السماوات والأرض, فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية, فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم, جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها عنده, وجاء الآخر فجلس إليهما, وجاء الآخر فجلس إليهم, وجاء الآخر وجاء الآخر, ولا يعرف واحد منهم الآخر, وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان.

كما جاء في الحديث الذين رواه البخاري تعليقاً من حديث يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "**الأرواح جنود مجندة, فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**" وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ , والناس يقولون: الجنسية علة الضم,

والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم, ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء , فليظهر كل واحد منكم بأمره, فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل, وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما, وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك, وقال الآخر كذلك, حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة, فصاروا يداً واحدة, وإخوان صدق, فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه, فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه, فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل, ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿**وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ من دُونه إِلَهاً**﴾ ولن لنفي التأبيد أي لا يقع منا هذا أبداً, لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً, ولهذا قال عنهم: ﴿**لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً**﴾ أي باطلاً وبهتاناً ﴿**هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا من دُونه آلهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ**﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّه كَذباً**﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك, فيقال إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وهددهم وتوعدهم, وأمر بترع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم, وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه, وكان هذا من لطف الله بهم, فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة, وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه, كما جاء في الحديث "يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن" ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها, لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع, فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم, واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله:﴿ **وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ**﴾ أي وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله, ففارقوهم أيضاً بأبدانكم, ﴿**فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته**﴾ أي يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم (ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم) الذي أنتم فيه ﴿**مِّرْفَقاً**﴾ أي أمراً ترتفقون به, فعند ذلك خرجوا هراباً إلى الكهف فأووا إليه, ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك, فيقال أنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيّه محمد ﷺ , وصاحبه الصديق حين لجأ إلى غار ثور, وجاء المشركون من قريش في الطلب فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه, وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا, فقال ﷺ : **"يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟"** وقد قال تعالى: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذينَ كَفَرُواْ ثَانيَ اثْنَيْن إِذْ هُمَا في الْغَار إِذْ يَقُولُ لصَاحبه لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكينَتَهُ عَلَيْه وَأَيَّدَهُ بجُنُود لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلمَةَ الَّذينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلمَةُ اللّه هيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ**﴾ فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف).

ويقول سيد قطب رحمه الله في الظلال: (﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ بإلهامهم كيف يدبرون أمرهم . ﴿**وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾ فإذا هي ثابتة راسخة , مطمئنة إلى الحق الذي عرفت . معتزة بالإيمان الذي اختارت ﴿**إِذْ قَامُوا**﴾ . والقيام حركة تدل على العزم والثبات . ﴿**فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ . فهو رب هذا الكون كله (لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً) . فهو واحد بلا شريك . (لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً) . وتجاوزنا الحق وحدنا عن الصواب .

ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه , ويستنكرون المنهج الذي يسلكونه في تكوين العقيدة: ﴿**هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ**﴾ . . ؟

فهذا هو طريق الاعتقاد أن يكون للإنسان دليل قوي يستند إليه , وبرهان له سلطان على النفوس والعقول . وإلا فهو الكذب الشنيع , لأنه الكذب على الله: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً**﴾ . . ؟

وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحا صريحا حاسما , لا تردد فيه ولا تلعثم . . إنهم فتية , أشداء في أجسامهم , أشداء في إيمانهم . أشداء في استنكار ما عليه قومهم . .

ولقد تبين الطريقان , واختلف المنهجان . فلا سبيل إلى الالتقاء , ولا للمشاركة في الحياة . ولا بد من الفرار بالعقيدة . إنهم ليسوا رسلا إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها , ويتلقوا ما يتلقاه الرسل . إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر , ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها , وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويراودهم , ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف . فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله , وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة . وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم: ﴿**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً**﴾ . .

وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة . فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم , ويهجرون ديارهم , ويفارقون أهلهم . ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة . هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم . هؤلاء يستروحون رحمة الله . ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة . ﴿**يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته**﴾ ولفظة ﴿**يَنشُرْ**﴾ تلقي ظلال السعة والبحبوحة والإنفساح . فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها , وتشملهم بالرفق واللين والرخاء . . إن الحدود الضيقة لتتزاح , وإن الجدران الصلدة لترق , وإن الوحشة الموغلة لتشف , فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق .

إنه الإيمان . .

وما قيمة الظواهر ? وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية ? إن هنالك عالما آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان , المأنوس بالرحمن . عالما تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان).

مطاردة خير البشرية خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ

إن القارئ للتاريخ يجد أن حدث الهجرة من أعظم الأحداث التاريخية والذي ارتبط به تاريخ أمة الإسلام وبه بدأ تشريع الجهاد ضد الكفر والكافرين وبه حصل التحول الكبير للمسلمين من مستضعفين مُطاردين إلى أقوياء فاتحين ونشأت نواة دولة الإسلام في المدينة النبوية ثم امتدت دولة الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها فقد أمر اللهُ سبحانه وتعالى خاتمَ الأنبياء والمرسلين محمداً ﷺ بالخروج من مكة إلى المدينة فأتى إلى أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه في وقت غير معتاد وهو متقنع ورتَّب مع أبي بكر الصديق عملية الخروج واتخذ الغطاء والساتر المناسب لخروجه واختفائه هذا وجعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينام مكانه وفي هذا خداعٌ للعدو والحرب خُدعة وأستاجر الهادي الخِرِّيت (المُهرب) وتمت عملية التنسيق لتوصيل الأخبار التي تدور في مكة ....

يقول الله عز وجل: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾.

يقول سيد قطب رحمه الله في الظلال: (إنه التذكير بما كان في مكة , قبل تغير الحال , وتبدل الموقف . وإنه ليوحي بالثقة واليقين في المستقبل ; كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته فيما يقضي به ويأمر . . ولقد كان المسلمون الذين يخاطبون بهذا القرآن أول مرة , يعرفون الحالين معرفة الذي عاش ورأى وذاق . وكان يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريب , وما كان فيه من خوف وقلق ; في مواجهة الحاضر الواقع وما فيه من أمن وطمأنينة . . وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم , لا مجرد النجاة منهم !

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحبسوه حتى يموت ; أو ليقتلوه ويتخلصوا منه ; أو ليخرجوه من مكة منفيا مطرودا ...ولقد ائتمروا بهذا كله ثم اختاروا قتله ; على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعا ; ليتفرق دمه في القبائل ; ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها , فيرضوا بالدية وينتهي الأمر !

قال الإمام أحمد:حدثنا عبد الرزاق , أخبرنا معمر , أخبرني عثمان الجريري , عن مقسم مولى ابن عباس , أخبره ابن عباس في قوله: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ**﴾... قال: " تشاورت قريش ليلة بمكة . فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق — يريدون النبي ﷺ — وقال بعضهم: بل اقتلوه . وقال بعضهم: بل أخرجوه . فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ; فبات عليّ رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار . وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه ; فلما رأوه عليا رد الله تعالى عليهم مكرهم , فقالوا: أين صاحبك هذا ? قال:لا أدري ! فاقتصوا أثره ; فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم , فصعدوا في الجبل , فمروا بالغار , فرأوا على بابه نسج العنكبوت , فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه . . فمكث فيه ثلاث ليال . "

[قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية عن رواية نسج العنكبوت هذه:(وهذا إسناد حسن وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار وذلك من حماية الله ﷺ)].

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ والصورة التي يرسمها قوله تعالى: **﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّـهُ﴾. .** صورة عميقة التأثير **.** ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش , وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون **. .** والله من ورائهم , محيط , يمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون **!**

إنها صورة ساحرة , وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة **.** فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل , من تلك القدرة القادرة **. .** قدرة الله الجبار , القاهر فوق عباده , الغالب على أمره , وهو بكل شيء محيط ?).

ويقو سبحانه وتعالى: **﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّـذِينَ كَفَـرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**

يقول ابن كثير رحمه الله حول هذه الآية: (يقول تعالى: **﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ﴾** أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره **﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾** أي عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هارباً بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة فجعل أبو بكر رضي الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول: **"يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما"** كما قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال: فقال: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما" أخرجاه في الصحيحين , ولهذا قال تعالى: **﴿فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾** أي تأييده ونصره عليه أي على الرسول ﷺ في أشهر القولين وقيل على أبي بكر, وروي عن ابن عباس وغيره قالوا: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ولهذا قال: **﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾** أي الملائكة **﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾** قال ابن عباس يعني بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هي لا إله إلا الله**.** وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال: **"من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"** وقوله: **﴿وَاللّهُ عَزِيزٌ﴾** أي في انتقامه وانتصاره, منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه, واحتمى بالتمسك بخطابه **﴿حَكِيمٌ﴾** في أقواله وأفعاله).

ويقول رحمه الله في البداية والنهاية: (يقول تعالى مؤنبا من تخلف عن الجهاد مع الرسول إلا تنصروه أنتم فان الله ناصره ومؤيده ومظفره كما نصره إذ أخرجه الذين كفروا من أهل مكة هاربا ليس معه غير صاحبه وصديقه أبي بكر ليس غيره ولهذا قال ثاني اثنين إذ هما في الغار أي وقد لجأ إلى الغار فأقاما فيه ثلاثة أيام ليسكن الطلب عنهما

وذلك لأن المشركين حين فقدوهما كما تقدم ذهبوا في طلبهما كل مذهب من سائر الجهات وجعلوا لمن ردهما أو أحدهما مائة من الإبل واقتصوا آثارهما حتى اختلط عليهم وكان الذي يقتص الأثر لقريش سراقة بن مالك بن جعشم كما تقدم فصعدوا الجبل الذي هما فيه وجعلوا يمرون على باب الغار فتحاذى أرجلهم لباب الغار ولا يروهما حفظا من الله لهما ...... وقد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبي ﷺ : لو جاءونا من ههنا لذهبنا من هنا فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف ولسنا نثبت شيئا من تلقاء أنفسنا ولكن ما صح أو حسن سنده قلنا به والله أعلم).

ويقول رحمه الله أيضاً: (ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيُدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت لا يسمع أمراً يُكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيعهما حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث).

وقال رحمه الله: (قال ابن إسحاق ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر أما علي فان رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس وكان رسول الله ﷺ وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته قال ابن إسحاق فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ......قال ابن إسحاق: ثم عمدا إلى غار بثور جبل بأسفل مكة فدخلاه وأمر أبو بكر الصديق ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار فكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر وكان عامر بن فهيرة يرعى في رعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفى عليه ....قال ابن إسحاق: وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما قالت أسماء ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا ابنة أبي بكر قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي قالت: فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي ثم انصرفوا.

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدثه عن جدته أسماء قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم فانطلق بها معه قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه قالت: قلت:

كلا يا أبة إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً قالت: وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ثم وضعت عليها ثوبا ثم أخذت بيده فقلت: يا أبة ضع يدك على هذا المال قالت: فوضع يده عليه فقال: لا بأس إذ كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم ولا والله ما ترك لنا شيئا ولكن أردت أن اسكن الشيخ بذلك).

يقول ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد في هدي خير العباد وهو يحكي هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة: (لما رأى المشركُون أصحابَ رسول الله ﷺ قد تجهَّزُوا، وخرجُوا، وحمَلُوا، وساقوا الذَّراري والأطفالَ والأموالَ إلى الأوسِ والخزرَج، وعرفُوا أن الدارَ دارُ مَنَعَة، وأن القومَ أَهلُ حَلْقَة وَشَوْكَة وبأس، فخافوا خروجَ رسولِ الله ﷺ إليهم ولحوقَه بهم، فيشتدَّ عليهم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة، ولم يتخلَّفْ أحدٌ من أهل الرأي والحجا منهم ليتشاوروا في أمره، وحضرهم وليُّهم وشيخُهم إبليسُ في صُورة شيخ كبير من أهل نجد مشتمل الصَّمَّاء في كسائه، فتذاكَرُوا أمرَ رسول الله ﷺ فأشار كُلُّ أحد منهم برأي، والشيخُ يردُّهُ ولا يرضاه، إلى أن قال أبو جهل: قد فُرِقَ لي فيه رأى ما أراكم قد وقعتُم عليه، قالوا: ما هو ؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً نَهْداً جَلْداً، ثمَّ نعطيه سَيْفاً صارماً، فيضربونه ضربةَ رجلٍ واحد، فيتفرَّقُ دمه في القبائل، فلا تدرى بنو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنعُ، ولا يُمكنُهَا معاداة القبائل كلها، ونسوقُ إليهم ديته، فقال الشيخ: لله دَرُّ الفتى، هذا والله الرأيُ، قال: فتفرَّقوا على ذلك، واجتمعوا عليه، فجاءه جبريلُ بالوحي من عند ربه تبارك وتعالى، فأخبره بذلك، وأمره أن لا ينام في مَضجعه تلكَ الليلة.

وجاء رسولُ الله ﷺ إلى أبي بكر نصفَ النهار في ساعة لم يكن يأتيه فيها مُتَقَنِّعاً، فقالَ له: **"أخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ"** فقَالَ: إنما هُم أهْلُكَ يا رسولَ الله، فقال: **"إنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِي في الخُرُوجِ"** فقال أبُو بكر: الصحبة يا رسولَ الله ؟ فقال رسولُ الله ﷺ : **"نعم"** فقال أبو بكر: فخذ بأبي وأُمّي إحدَى راحلتيَّ هاتين، فقال رسولُ الله ﷺ : **"بالثمن"**.

وأمر علياً أن يبيت في مَضْجَعه تلكَ الليلة، واجتمعَ أُولئكَ النفرُ من قريش يتطلعون من صِيْرِ الباب ويرصُدُونه، ويُريدون بياتَه، ويأتمرونَ أيهم يكونُ أشقاها، فخرج رسول الله ﷺ عليهم فأخذ حَفنةً من البطحاء، فجعل يَذُرُّهُ على رؤوسهم، وهم لا يرونه، وهو يتلو: ﴿**وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ ، ومضى رسولُ الله ﷺ إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خَوْخَةٍ في دار أبي بكر ليلاً، وجاء رجلٌ، ورأى القوم ببابه، فقال: ما تنتظرون ؟ قالوا: محمداً، قال: خِبتُم وخَسِرْتُم، قد واللهِ مرَّ بِكُمْ وذرّ على رؤوسكم الترابَ، قالوا: واللهِ ما أبصرناه، وقاموا ينفضُون التراب عن رؤوسهم، وهم: أبو جهل، والحكمُ بنُ العاص، وعُقْبَةُ بن أبي مُعيط، والنَّضرُ بن الحارث، وأُميَّةُ بن خلف، وزمعةُ بن الأسود، وطُعيمة بن عدى، وأبو لهب، وأُبَيُّ بن خلف، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج، فلما أصبحوا، قام عليٌ عن الفراش، فسألُوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لا عِلم لي به.

ثم مضى رسولُ الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثورٍ، فدخلاه، وضربَ العنكبوتُ على بابه.

وكانا قد استأجرَا عبدَ الله بن أُرَيْقِطٍ الليثي، وكان هادياً ماهِراً بالطريق، وكان على دِين قومه من قريش، وأمناه على ذلك، وسلَّما إليه راحلتيهما، وواعداه غارَ ثور بعد ثلاث، وجدَّت قريش في طلبهما، وأخذوا معهم القافَة، حتى انتهوا إلى بابِ الغار، فوقفوا عليه.

ففى الصحيحين أن أبا بكر قال: يا رسول الله ؛ لو أنَّ أحَدَهُم نظر إلى ما تحت قَدَمَيْه لأبصرنا فقال: **"يَا أَبَا بَكْرٍ ؛ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا، لاَ تَحْزَنْ فإنَّ اللهَ مَعَنَا"** وكان النبيُّ ﷺ وأبو بكر يسمعانِ كلامَهم فوقَ رؤوسهما، ولكن الله سُبحانه عمَّى عليهم أمَرهما، وكان عامِر بن فُهيرة يرعى عليهما غنماً لأبى بكر، ويتسمَّع ما يُقالُ بمكة، ثم يأتيهما بالخبر، فإذا كان السَحَر سَرَحَ مع الناسِ.

قالت عائشة: وجهَّزناهُما أحث الجِهاز، ووضَعْنَا لهمَا سُفرة في جِرابٍ، فَقَطَعَتْ أسماءُ بنتُ أبى بكر قطعةً مِنْ نِطاقها، فأوْكَتْ بِهِ الجِراب، وقطعتِ الأُخرى فصيرَّتها عِصاماً لِفم القِربة، فلذلك لُقِّبتْ: ذاتَ النطاقين.

وذكر الحاكم في مستدركه عن عمر قال: خرج رسولُ الله ﷺ إلى الغار، ومعه أبو بكر، فجعل يمشى ساعة بين يديه، وساعة خلفَه، حتى فَطِنَ له رسولُ الله ﷺ ، فسأله، فقال له: يا رسول الله ؛ أذكُر الطلبَ، فأمشى خلفك، ثم أذكُر الرصَدَ، فأمشى بين يديك فقال: **"يا أبا بكر ؛ لو كان شيء أحببتَ أن يكون بكَ دوني؟"** قال: نعم والَّذي بعثك بالحقِّ، فلما انتهى إلى الغار قال أبو بكر: مكانَكَ يا رسول الله حتى أستبرىءَ لك الغارَ، فدخل، فاستبرأه، حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرىء الجحَرَةَ، فقال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء الجحَرَةَ ثم قال: انزلْ يا رسولَ الله، فنزل، فمكثا في الغار ثلاثَ ليالٍ حتى خمدت عنهما نارُ الطلب، فجاءهما عبد الله بن أُريقط بالراحلتين، فارتحلا، وأردف أبو بكر عامر بن فُهيرة، وسار الدليلُ أمامهما، وعينُ الله تكلؤهما، وتأييدُه يصحبُهما، وإسعاده يرحلُهما ويُنزلهما.

ولما يئس المشركون من الظَّفرِ بهما، جعلُوا لمن جاء بهما ديةَ كل واحد منهما، فجدَّ الناسُ في الطَّلب، واللهُ غالبٌ على أمره، فلما مرُّوا بحي بنى مُدُلجٍ مُصعدِين من قُديد، بَصُرَ بهم رجلُ من الحيِّ، فوقف على الحيِّ فقال: لقد رأيتُ آنفاً بالساحل أَسْوِدَةً ما أُراها إلا محمداً وأصحابَه، فَفَطِنَ بالأمر سُراقة بن مالك، فأراد أن يكون الظفرُ له خاصة، وقد سبق له من الظَّفَرِ ما لم يكن في حسابه، فقال: بل هم فلان وفلان، خرجا في طلب حاجة لهما، ثم مكث قليلاً، ثم قام فدخل خِباءه وقال لخادمه: اخْرُجْ بالفرس من وراءِ الخباء، وموعدُك وراء الأكمة، ثم أخذ رُمحه، وخفض عَاليه يَخُطُّ به الأرضَ حتى رَكِبَ فرسه، فلما قَرُبَ منهم وسمع قِراءة رسولِ الله ﷺ ، وأبو بكر يُكْثِرُ الالتفات، ورسول الله ﷺ لا يلتفت، فقال أبو بكر: يا رسولَ الله ؛ هذا سُراقة بن مالك قد رَهَقَنَا، فدعا عليه رسولُ الله ﷺ فساخت يدا فرسه في الأرضِ، فقال: قد علمتُ أن الذي أصابني بدعائكما، فادعوا الله لي، ولكما عليّ أن أردَّ الناسَ عنكما، فدعا له رسول الله ﷺ ، فأُطلق، وسأل رسولَ الله ﷺ أن يكتُب له كتاباً، فكتب له أبو بكر بأمره في أديم وكان الكتابُ معه إلى يوم فتح مكة، فجاءه بالكِتاب، فوفَّاه له رسولُ الله ﷺ ، وقال: **"يَوْمُ وَفَاءٍ وَبِرٍّ"**، وعرض عليهما الزاد والحِملان، فقالا: لا حاجة لنا به، ولكن عَمِّ عنَّا الطلبَ، فقالَ: قد

كُفيتم، ورجع فوجَدَ الناسَ في الطلب، فجعل يقول: قد استبرأتُ لكم الخبر، وقد كُفيتم ما ههنـــا، وكـــان أول النهار جاهداً عليهما، وآخره حارساً لهما).

ويقول سيد قطب رحمه الله حول آية التوبة في ظلاله: (إن الاستعلاء على ثقلة الأرض وعلى ضعف النفس إثبات للوجود الإنساني الكريم فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة وإن التثاقل إلى الأرض الاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنساني الكريم . فهو فناء في ميزان اللّه وفي حساب الروح المميزة للإنسان .

ويضرب اللّه لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه , على نصرة اللّه لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء , والنصر من عند اللّه يؤتيه من يشاء: **﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** . .

ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ﷺ ذرعاً , كما تضيق القوة الغاشمة دائماً بكلمة الحق , لا تملك لها دفعـــاً , ولا تطيق عليها صبراً , فائتمرت به , وقررت أن تتخلص منه ; فأطلعه اللّه على ما ائتمرت , وأوحى إليه بالخروج , فخرج وحيداً إلا من صاحبه الصدّيق , لا جيش ولا عدة , وأعداؤه كثر , وقوتهم إلى قوته ظاهرة والسياق يرسم مشهد الرسول ﷺ وصاحبه: **﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾**.

والقوم على إثرهما يتعقبون , والصديق رضي اللّه عنه يجزع لا على نفسه ولكن على صاحبه أن يطلعوا عليهمـــا فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب , يقول له:لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . والرسول ﷺ وقد أنزل اللّه سكينته على قلبه , يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له:**"يا أبا بكر ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما ?"** .

ثم ماذا كانت العاقبة , والقوة المادية كلها في جانب , والرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه منها مجرد ? كان النصر المؤزر من عند اللّه بجنود لم يرها الناس . وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار: **﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى﴾**.

وظلت كلمة اللّه في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة: **﴿وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾** . .

وقد قرئ **﴿وَكَلِمَةُ اللّهِ﴾** بالنصب . ولكن القراءة بالرفع أقوى في المعنى . لأنها تعطي معنى التقرير فكلمة اللّه هي العليا طبيعة وأصلاً , بدون تصيير متعلق بحادثة معينة . واللّه **﴿عَزِيزٌ﴾** لا يذل أولياؤه **﴿حَكِيمٌ﴾** يقدر النصـــر في حينه لمن يستحقه .

ذلك مثلٌ على نصرة اللّه لرسوله ولكلمته ; واللّه قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخـــرين غـــير الـــذين يتثاقلون ويتباطأون . وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول اللّه إلى دليل !).

مطاردة صحابة رسول الله رضي الله عنهم وهجرتهم إلى الحبشة

لما بعث النبي ﷺ ودعا إلى الإسلام لم يستجب له في أول الأمر إلا الواحد بعد الواحد من كل قبيلة ، وكان المستجيب له خائفاً من عشيرته وقبيلته ، يؤذى غاية الأذى ، وينال منه وهو صابر على ذلك في الله عز وجـــل ، وكان المسلمون إذ ذاك مستضعفين يشردون كل مشرد ويهربون بدينهم إلى البلاد النائية كما هاجروا إلى الحبشة مرتين ثم هاجروا إلى المدينة ، وكان منهم من يعذب في الله ومنهم من يقتل ، فكان الداخلون في الإسلام حينئـــذ غرباء يقول ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد: (فانحاز المهاجرون إلى مملكة أصحمة النجاشي آمِنِين، فلما عَلِمَــــتْ قريشٌ بذلك، بعثت في أثرهم عبدَ الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، بهدايَا وتُحَف مِن بلدهم إلى النجاشـــي ليردَّهم عليهم، فأبى ذلك عليهم، وشَفَعُوا إليه بعظماء بطارقته، فلم يجبهم إلى ما طلبوا، فَوَشَوْا إليه: أن هـــؤلاء يقولون في عيسى قولاً عظيماً، يقولون: إنه عبد الله، فاستدعى المهاجرين إلى مجلسه، ومُقَدَّمُهم جعفـــر بـــن أبي طالب، فلما أرادوا الدخولَ عليه، قال جعفر: يستأذِنُ عليك حِزْبُ الله، فقال للآذِن: قل له يُعيد استئذانه، فأعاده عليه، فلما دخلوا عليه قال: ما تقولون في عيسى ؟ فتلا عليه جعفر صدراً من سورة "**كهيعص**" فأخذ النجاشـــي عُوداً من الأرض فقال: ما زاد عيسى عَلَى هذا ولا هذَا العود، فتناخرت بطارقتهُ عنده، فقال: وإن نخرتم، قـــال: اذهبوا فأنتم سَيوم بأرضي، من سبَّكم غُرِّم (والسيوم: الآمنون في لسانهم) ثم قال للرسولين: لو أعطيتموني دَبْرَاً من ذهب يقول: جبلاً من ذهب ما أسلمتهم إليكما، ثم أمَرَ فَرُدَّت عليهما هداياهما، ورجعا مقبوحين).

وجاء في مسند الإمام أحمد أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قال للنجاشي واصفاً حالهم مع قريش: (فلمـــا قهرونا وظلمونا وشقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك).

قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية: (فأما رواية جعفر فإنها عزيزة جدا رواها ابن عساكر ....عن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال: بعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية من أبي سفيان إلى النجاشي فقـــالوا له: ونحن عنده قد صار إليك ناس من سفلتنا وسفهائنا فادفعهم إلينا قال: لا حتى اسمع كلامهم قال: فبعث إلينـــا فقال: ما يقول هؤلاء قال: قلنا: هؤلاء قوم يعبدون الأوثان وإن الله بعث إلينا رسولاً فآمنا به وصدقناه فقال لهم النجاشي: أعبيدٌ هم لكم قالوا: لا فقال: فلكم عليهم دين قالوا: لا قال: فخلوا سبيلهم قال: فخرجنا من عنـــده فقال عمرو بن العاص: إن هؤلاء يقولون في عيسى غير ما تقول قال: إن لم يقولوا في عيسى مثل قولي لم أدعهم في أرضي ساعة من نهار فأرسل إلينا فكانت الدعوة الثانية أشد علينا من الأولى قال: ما يقول صاحبكم في عيسى بن مريم قلنا: يقول هو روح الله وكلمته ألقاها إلى عذراء البتول قال: فأرسل فقال: ادعوا لي فلان القس وفـــلان الراهب فأتاه ناس منهم فقال: ما تقولون في عيسى بن مريم فقالوا: أنت أعلمنا فما تقول قال النجاشي وأخذ شيئا من الأرض قال: ما عدا عيسى ما قال هؤلاء مثل هذا ثم قال: أيؤذيكم أحدا قالوا نعم فنادى مناد من آذى أحدا

منهم فأغرموه أربعة دراهم ثم قال: أيكفيكم قلنا لا فأضعفها قال فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وظهر بها قلنا له: إن رسول الله ﷺ قد ظهر وهاجر إلى المدينة وقتل الذين كنا حدثناك عنهم وقد أردنا الرحيل إليه فرُدَّنا قال: نعم فحملنا وزودنا ثم قال: أخبر صاحبك بما صنعت إليكم وهذا صاحبي معكم أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله وقل له يستغفر لي قال جعفر: فخرجنا حتى أتينا المدينة فتلقاني رسول الله ﷺ واعتنقني ثم قال: **ما أدري أنا بفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر** ووافق ذلك فتح خيبر ثم جلس فقال رسول النجاشي: هذا جعفر فسله ما صنع به صاحبنا فقال: نعم فعل بنا كذا وكذا وحملنا وزودنا وشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وقال لي: قل له يستغفر لي فقام رسول الله ﷺ فتوضأ ثم دعا ثلاث مرات **اللهم اغفر للنجاشي** فقال المسلمون: آمين ثم قال جعفر للرسول (أي رسول النجاشي) انطلق فأخبر صاحبك بما رأيت من رسول الله ﷺ ثم قال ابن عساكر حسن غريب).

فها هم إذن صحابة رسول الله رضي الله عنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم وطوردوا وهاجروا واختفوا وركبوا المخاطر والمشاق وسافروا المسافات الطويلة بل وركبوا البحر فمنهم من ذهب إلى الحبشة وبقي في جوار النجاشي (**يسمى اليوم باللجوء السياسي**) ولم يعودوا إلا في عام خيبر (أي مكثوا في الحبشة سنوات طويلة) ومنهم من هاجر إلى المدينة النبوية وترك أهله وماله ودياره من أجل هذا الدين ولذا امتدحهم الله بقوله: ﴿**لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿**يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً**﴾ أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿**وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم , وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم. قال عمر: وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم, وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل, أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم رواه البخاري ههنا أيضاً.

قوله تعالى: ﴿**يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ**﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا حميد عن أنس قال: قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير, لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال "**لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم**" لم أره في الكتب من هذا الوجه.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن يحيى بن سعيد سمع أنس بن مالك حين خرج معـــه إلى الوليد قال دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين. قالوا لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها قال "**إما لا فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة**" تفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال البخاري: حدثنا الحكم بن نافع أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل, قال: لا. فقالوا: أتكفوننا المؤنة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا. تفرد به دون مسلم ﴿**وَلَا يَجِدُونَ فِـــي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا**﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة.

قال الحسن البصري ﴿**وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً**﴾ يعني الحسد ﴿**مِّمَّا أُوتُوا**﴾ قال قتادة يعني فيما أعطـــى إخوانهم. وكذا قال ابن زيد ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عبـــد الـــرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن أنس قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: "**يطلع عليكم الآن رجل من أهـــل الجنة**" فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال, فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك, فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى, فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً, فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى, فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقـــال: إني لا حيت أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً, فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال "نعم".

قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً, فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحتقر عمله, قلت يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة, ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات "**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**" فطلعت أنت الثلاث المرات, فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به, فلم أرك تعمل كبير عمل, فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ قال: ما هو إلا ما رأيت, فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشـــاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق, ورواه النســـائي في اليوم والليلة عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن معمر به, وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري عن رجل عن أنس, فالله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا**﴾ يعني مما أوتـــوا المهاجرين, قال وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى: ﴿**وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ : "**إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم**" فقالوا أموالنا بيننا قطائع, فقال رسول الله ﷺ : "**أو غير ذلك**" قالوا: وما ذاك يا رسول الله ؟ قال: "**هم قوم لا يعرفون**

العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر" فقالوا: نعم يا رسول الله. وقوله تعالى: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾** يعني حاجة أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **"أفضل الصدقة جهد المقل"** وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله تعالى: **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾** وقوله: **﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾** فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به, وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به, وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه, ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله, فقال له رسول الله ﷺ : **"ما أبقيت لأهلك ؟"** فقال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله, وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه, وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء, فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم و لم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير حدثنا أبو أسامة حدثنا فضيل بن غزوان حدثنا أبو حازم الأشجعي عن أبي هريرة قال: أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجهد, فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً, فقال النبي ﷺ : **"ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله"** فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله, فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً, فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم, وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة, ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: **"لقد عجب الله عز وجل ــ أو ضحك ــ من فلان وفلانة"** وأنزل الله تعالى: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾** وكذا رواه البخاري في موضع آخر ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن فضيل بن غزوان وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح.

قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا داود بن قيس الفراء عن عبيد الله بن مقسم, عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: **"إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة, واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم"** انفرد بإخراجه مسلم فرواه عن القعنبي عن داود بن قيس به.

وقال الأعمش وشعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن زهير بن الأقمر عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ **"اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة, واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش, وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم, أمرهم بالظلم فظلموا, وأمرهم بالفجور ففجروا, وأمرهم بالقطيعة فقطعوا"** ورواه أحمد وأبو داود من طريق شعبة والنسائي من طريق الأعمش, كلاهما عن عمرو بن مرة به, وقال الليث عن يزيد بن الهاد عن سهيل بن أبي صالح عن صفوان بن أبي يزيد عن القعقاع بن الجلاح عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **"لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً, ولا**

يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً" وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي, حدثنا عبدة بن سليمان, أخبرنا ابن المبارك, حدثنا المسعودي عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت, فقال له عبد الله: وما ذاك ؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً, فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله في القرآن, إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً, ولكن ذاك البخل وبئس الشيء البخل.

وقال سفيان الثوري عن طارق بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول: اللهم قني شح نفسي لا يزيد على ذلك, فقلت له, فقال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق و لم أزن و لم أفعل, وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. رواه ابن جرير. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن إسحاق, حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي, حدثنا إسماعيل بن عياش, حدثنا مجمع بن جارية الأنصاري عن عمه يزيد بن جارية عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: **"برىء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة"**.

وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال في آية براءة ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ**﴾ فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية, ولهذا قال تعالى: في هذه الآية الكريمة ﴿**وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ**﴾ أي قائلين ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا**﴾ أي بغضاً وحسداً ﴿**لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب, لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾).

ويقول سيد قطب رحمه الله في ظلاله: (هي صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين ... أخرجوا إخراجا من ديارهم وأموالهم . أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم في مكة لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله... وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا**﴾ اعتمادهم على الله في فضله ورضوانه . لا ملجأ لهم سواه , ولا جناب لهم إلا حماه . . وهم مع أنهم مطاردون قليلون ﴿**يَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾...بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الساعات وأضيق الأوقات.. ﴿**أُوْلَئِكَ هُمُ**

الصَّادِقُونَ﴾...الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم , وصدقوها بعملهم . وكانوا صادقين مع الله في أنهم اختاروه . وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه . وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس !

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾...

وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار . هذه المجموعة التي تفردت بصفات , وبلغت إلى آفاق , لولا أنها وقعت بالفعل , لحسبها الناس أحلاما طائرة ورؤى مجنحة ومثلا عليا قد صاغها خيال محلق .

.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ . أي دار الهجرة . يثرب مدينة الرسول ﷺ وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين . كما تبوأوا فيها الإيمان . وكأنه مترل لهم ودار . وهو تعبير ذو ظلال . وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان . لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم , وتسكن إليه أرواحهم , ويثوبون إليه ويطمئنون له , كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار .

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ . و لم يعرف تاريخ البشرية كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين . بهذا الحب الكريم . وبهذا البذل السخي . وبهذه المشاركة الرضية . وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء . حتى ليروى أنه لم يترل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة . لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين[1] ! **﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾** . . مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع , ومن مال يختصون به كهذا الفيء , فلا يجدون في أنفسهم شيئا من هذا . ولا يقول: حسدا ولا ضيقا . إنما يقول: **﴿حَاجَةً﴾**. مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم , فلا تجد شيئا أصلا .

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ . والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا . وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرا . وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديما وحديثا .

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ . فهذا الشح . شح النفس . هو المعوق عن كل خير . لأن الخير بذل في صورة من الصور . بذل في المال . وبذل في العاطفة . وبذل في الجهد . وبذل في الحياة عند الاقتضاء . وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهم دائما أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطي . ومن يوق شح نفسه , فقد وقي هذا المعوق عن الخير , فانطلق إليه معطيا باذلا كريما . وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه .

---

[1] فأين الذين تبوأوا الدار والإيمان يا أهل جزيرة العرب؟ أين الذين يقفون مع المجاهدين الغرباء في محنتهم؟ أين الذين يضحون من أجل هذا الدين؟ إن أملنا في أحفاد الصحابة وأبناء المهاجرين والأنصار كبير فأروا الله من أنفسكم خيراً.

﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . .

وهذه الصورة الثالثة النظيفة الرضية الواعية . وهي تبرز أهم ملامح التابعين . كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان .

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار ــ و لم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية في المدينة , إنما كانوا قد جاءوا في علم الله وفي الحقيقة القائمة في هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان ــ سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة , لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان ; وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق , ممن يربطهم معهم رباط الإيمان . مع الشعور برأفة الله , ورحمته , ودعائه بهذه الرحمة , وتلك الرأفة: **﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** . .

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود . تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها , وآخرها بأولها , في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف . وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب ; وتتفرد وحدها في القلوب , تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة , فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة , كما يذكر أخاه الحي , أو أشد , في إعزاز وكرامة وحب . ويحسب السلف حساب الخلف . ويمضي الخلف على آثار السلف . صفاً واحداً وكتيبةً واحدةً على مدار الزمان واختلاف الأوطان , تحت راية الله تغذ السير صعداً إلى الأفق الكريم , متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم .

إنها صورة باهرة , تمثل حقيقة قائمة ; كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم . صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين تقرن مثلا إلى صورة الحقد الذميم والهدم اللئيم التي تمثلها وتبشر بها الشيوعية في إنجيل كارل ماركس . صورة الحقد الذي ينغل في الصدور , وينخر في الضمير , على الطبقات , وعلى أجيال البشرية السابقة , وعلى أممها الحاضرة التي لا تعتنق الحقد الطبقي الذميم . وعلى الإيمان والمؤمنين من كل أمة وكل دين !

صورتان لا التقاء بينهما في لمحة ولا سمة , ولا لمسة ولا ظل صورة ترفع البشرية إلى أعلى مراقيها ; وصورة تهبط بها إلى أدنى دركاتها . صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله , بريئة الصدور من الغل , طاهرة القلوب من الحقد , وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقي بعضهم بعضا بالحقد والدخل والدغل والغش والخداع والالتواء . حتى وهم في المعبد يقيمون الصلاة . فالصلاة ليست سوى أحبولة , والدين كله ليس إلا فخا ينصبه رأس المال للكادحين !

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.
.

هذه هي قافلة الإيمان . وهذا هو دعاء الإيمان . وإنها لقافلة كريمة . وإنه لدعاء كريم).

قصة مطاردة صحابيين بعد عملية جهادية وعدم تسليم أنفسهما لشريعة قريش (السمحة)!!!

قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية: (سرية عمرو بن أمية الضمري : قال الواقدي: حدثني إبراهيم بن جعفر عن أبيه وعبد الله بن أبي عبيدة عن جعفر بن الفضل بن الحسن بن عمرو بن أمية الضمري وعبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن أبي عوف وزاد بعضهم على بعض قالوا: كان أبو سفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة: ما أحد يغتال محمداً فإنه يمشي في الأسواق فندرك ثأرنا فأتاه رجل من العرب فدخل عليه مترله وقال له: إن أنت وفيتني وخرجت إليه حتى أغتاله فإني هاد بالطريق خريت معي خنجر مثل خافية النسر قال: أنت صاحبنا وأعطاه بعيرا ونمقه وقال: اطو أمرك فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فينميه إلى محمد قال الأعرابي: لا يعلمه أحد فخرج ليلا على راحلته فسار خمسا وصبح ظهر الحي يوم سادسه ثم أقبل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى أتى المصلى فقال له قائل: قد توجه إلى بني عبد الأشهل فخرج الأعرابي يقود راحلته حتى انتهى إلى بني عبد الأشهل فعقل راحلته ثم أقبل يؤم رسول الله ﷺ فوجده في جماعة من أصحابه يحدث في مسجده فلما دخل ورآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه: **إن هذا الرجل يريد غدرا والله حائلٌ بينه وبين ما يريده** فوقف وقال أيكم ابن عبد المطلب فقال له رسول ﷺ :أنا ابن عبد المطلب فذهب ينحني على رسول الله ﷺ كأنه يسارّه فجبذه أسيد بن حضير وقال: تنحَّ عن رسول الله ﷺ وجذب بداخن إزاره فإذا الخنجر فقال: يا رسول الله هذا غادر فأسقط في يد الأعرابي وقال: دَمي دمي يا محمد وأخذه أسيد بن حضير يلببه فقال له النبي ﷺ : **اصدقني ما أنت وما أقدمك فان معه نفعك الصدق وإنْ كذبتني فقد اطلعت على ما هممت به** قال الأعرابي: فأنا آمن قال: **وأنت آمن** فأخبره بخبر أبي سفيان وما جعل له فأمر به فحُبس عند أسيد بن حضير ثم صارا من الغد فقال: **قد أمنتك فاذهب حيث شئت أو خير لك من ذلك** قال: وما هو فقال: **أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله** فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك أنت رسول الله والله يا محمد ما كنت أفْرُق (أخاف) من الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت ثم اطلعت على ما هممت به فما سبقت به الركبان و لم يطلع عليه أحد فعرفت أنك ممنوع وأنك على حق وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان فجعل النبي ﷺ يتبسم وأقام أياما ثم استأذن النبي ﷺ فخرج من عنده و لم يسمع له بذكر وقال رسول الله ﷺ لعمرو بن أمية الضمري ولسلمة ابن أسلم بن حريش: **أخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب فإن أصبتما منه غرةً[1] فاقتلاه** قال عمرو: فخرجت أنا وصاحبي حتى أتينا بطن يأجج

[1] وهذا دليل آخر على مشروعية الاغتيالات لعلي أضيفه بإذن الله في الطبعة الجديدة لكتاب (تحريض المجاهدين الأبطال على إحياء سنة الاغتيال).

فقيَّدنا بعيرنا وقال لي صاحبي: يا عمرو هل لك في أن نأتي مكة فنطوف بالبيت سبعاً ونصلي ركعتين فقلت: أنا أعلم بأهل مكة منك إنهم إذا أظلموا رشَّوا أفنيتهم ثم جلسوا بها وإني أعرف من الفرس الأبلق فأبى علي فانطلقنا فأتينا مكة فطفنا سبعاً وصلينا ركعتين فلما خرجت لقيني معاوية بن أبي سفيان فعرفني وقال عمرو بن أمية: واحزناه فنذر بنا أهل مكة فقالوا: ما جاء عمرو في خير وكان عمرو فاتكاً في الجاهلية فحشد أهل مكة وتجمعوا وهرب عمرو وسلمة وخرجوا في طلبهما واشتدوا في الجبل قال عمرو فدخلت في غار فتغيبت عنهم حتى أصبحت وباتوا يطلبوننا في الجبل وعمَّى الله عليهم طريق المدينة أن يهتدوا له فلما كان ضحوة الغد أقبل عثمان بن مالك بن عبيد التيمي يختلي لفرسه حشيشاً فقلت لسلمة بن أسلم إذا أبْصَرنا أشْعَرَ بنا أهل مكة وقد انفضوا عنا فلم يزل يدنو من باب الغار حتى أشرف علينا قال: فخرجت إليه فطعنته طعنةً تحت الثدي بخنجري فسقط وصاح فاجتمع أهل مكة فأقبلوا بعد تفرقهم ورجعت إلى مكاني فدخلت فيه وقلت لصاحبي: لا تتحرك فأقبلوا حتى أتوه وقالوا: من قتلك؟ قال عمرو بن أمية الضمري فقال أبو سفيان: قد علمنا أنه لم يأت لخير و لم يستطع أن يخبرهم بمكاننا فإنه كان بآخر رمق فمات وشغلوا عن طلبنا بصاحبهم فحملوه فمكثنا ليلتين في مكاننا حتى سكن عنا الطلب ثم خرجنا إلى التنعيم فقال صاحبي: يا عمرو بن أمية هل لك في خبيب بن عدي نتزله فقلت له: أين هو قال: هو ذاك مصلوب حوله الحرس فقلت: أمهلني وتنح عني فان خشيت شيئا فانح إلى بعيرك فاقعد عليه فأتِ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ودعني فإني عالم بالمدينة[1] ثم استدرت عليه حتى وجدته فحملته على ظهري فما مشيت به إلا عشرين ذراعاً حتى استيقظوا فخرجوا في أثري فطرحت الخشبة فما أنسى وجيبها (يعني صوتها) ثم أهلت عليه التراب برجلي فأخذت طريق الصفراء فأعيوا ورجعوا وكنت لا أدري مع بقاء نفسي فانطلق صاحبي إلى البعير فركبه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره وأقبلت حتى أشرفت على الغليل غليل ضنجنان فدخلت في غار معي قوسي وأسهمي وخنجري فبينما أنا فيه إذ أقبل رجل من بني الديل بن بكر أعور طويل يسوق غنما ومعزى فدخل الغار وقال: من الرجل فقلت: رجل من بني بكر فقال: وأنا من بني بكر ثم اتكأ ورفع عقيرته يتغنى ويقول:

فلست بمسلم ما دمت حيا ولست أدين دين المسلمينا

فقلت في نفسي: والله أني لأرجو أن أقتلك فلما نام قمت إليه فقتلته شر قتلة قتلها أحد قط ثم خرجت حتى هبطت فلما أسهلت في الطريق إذا رجلان بعثهما قريش يتجسسان الأخبار فقلت: استأسر فأبى أحدهما فرميته فقتلته فلما رأى ذلك الآخر استأسر (أي استسلم) فشددته وثاقا ثم أقبلت به إلى النبي ﷺ فلما قدمت المدينة أتى صبيان الأنصار وهم يلعبون وسمعوا أشياخهم يقولون: هذا عمرو فاشتد الصبيان إلى النبي ﷺ فأخبروه وأتيته بالرجل قد ربطت إبهامه بوتر قوسي فلقد رأيت النبي ﷺ وهو يضحك ثم دعا لي بخير وكان قدوم سلمة قبل قدوم

[1] في هذا درسٌ مهم لمن يقوم بالعمليات الجهادية أن يكون عالماً بالمدينة التي تتم فيها العملية.

عمرو بثلاثة أيام رواه البيهقي وقد تقدم أن عمرا لما أهبط خبيبا لم ير له رمة ولا جسدا فلعله دفن مكان سقوطه والله أعلم وهذه السرية إنما استدركها ابن هشام على ابن إسحاق وساقها بنحو من سياق الواقدي لها لكن عنده أن رفيق عمرو بن أمية في هذه السرية جبار بن صخر فالله أعلم ولله الحمد).

اختفاء الصحابة من المُسْرف (مسلم بن عقبة) حين أباح المدينة ثلاثة أيام

حين أباح (مُسرف بن عقبة) المدينة ثلاثة أيام اختفى جمعٌ من سادات الصحابة رضوان الله عليهم وذهب بعضهم إلى بعض الكهوف والمغارات فكيف بمن أباح جزيرة العرب أسابيع وشهور وسنوات للصليبيين وأذنابهم لمطاردة وقتل المسلمين في كل مكان حتى وصلوا إلى استباحة دماء المجاهدين في مكة والمدينة وألصقوا بهم التهم والأكاذيب ألا يحق لهؤلاء الشباب الأخيار أن يقتدوا بصحابة رسول الله ﷺ ويغيبوا عن الأنظار إلى أن يأت الله بالفتح أو أمرٍ من عنده ؟!.

قال ابن كثير رحمه الله وهو يتحدث بحرقة وأسى عن وقعة الحرة في عام 63هـ وما فعله فيها يزيد بن معاوية ومُسرف بن عُقْبة: (ثم أباح مسلم بن عقبة الذي يقول فيه السلف مسرف بن عقبة قبحه الله من شيخ سوء ما أجهله المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد لا جزاه الله خيرا وقتل خيرا خلقا من أشرافها وقرائها وانتهب أموالاً كثيرة منها ووقع شر وفساد عريض على ما ذكره غير واحد فكان ممن قتل بين يديه صبرا معقل بن سنان وقد كان صديقه قبل ذلك ولكن أسمعه في يزيد كلاما غليظا فنقم عليه بسببه واستدعى بعلي بن الحسين فجاء يمشي بين مروان بن الحكم وابنه عبد الملك ليأخذ له بهما عنده أمانا و لم يشعر أن يزيد أوصاه به فلما جلس بين يديه استدعى مروان بشراب وقد كان مسلم بن عقبة حمل معه من الشام ثلجا إلى المدينة فكان يشاب له بشرابه فلما جيء بالشراب شرب مروان قليلا ثم أعطى الباقي لعلي بن الحسين ليأخذ له بذلك أمانا وكان مروان موادا لعلي ابن الحسين فلما نظر إليه مسلم بن عقبة قد أخذ الإناء في يده قال له: لا تشرب من شرابنا ثم قال له: إنما جئت مع هذين لتأمن بهما فارتعدت يد على بن الحسين وجعل لا يضع الإناء من يده ولا يشربه ثم قال له: لولا أن أمير المؤمنين أوصاني بك لضربت عنقك ثم قال له: إن شئت أن تشرب فاشرب وإن شئت دعونا لك بغيرها فقال: هذه الذي في كفي أريد فشرب ثم قال له مسلم بن عقبة: قم إلى ههنا فاجلس فأجلسه معه على السرير وقال له: إن أمير المؤمنين أوصاني بك وإن هؤلاء شغلوني عنك ثم قال لعلى بن الحسين: لعل أهلك فزعوا فقال إي والله فأمر بدابته فأسرجت ثم حمله عليها حتى رده إلى منزله مكرما ثم استدعى بعمرو بن عثمان بن عفان و لم يكن خرج مع بني أمية فقال له: إنك إن ظهر أهل المدينة قلت أنا معكم وإن ظهر أهل الشام قلت أنا ابن أمير المؤمنين ثم أمر به فنتفت لحيته بين يديه وكان ذا لحية كبيرة.

قال المدائني وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام يقتلون من وجدوا من الناس ويأخذون الأموال فأرسلت سُعدى بنت عوف المرية إلى مسلم بن عقبة تقول له: أنا بنت عمك فمر أصحابك أن لا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا فقال لأصحابه لا تبدؤوا إلا بأخذ إبلها أولا وجاءته امرأة فقالت: أنا مولاتك وابني في الأسارى فقال: عجلوه لها فضربت عنقه وقال: أعطوه رأسه أما ترضين أن لا يقتل حتى تتكلمي في ابنك ووقعوا على النساء حتى قيل إنه

حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج والله أعلم قال المدائني عن أبي قرة قال: قال هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة من غير زوج وقد اختفى جماعة من سادات الصحابة منهم جابر بن عبد الله وخرج أبو سعيد الخدري فلجأ إلى غار في جبل فلحقه رجل من أهل الشام قال فلما رأيته انتضيت سيفي فقصدني فلما رآني صمّم على قتلي فشممت سيفي ثم قلت إني أريد أن تبوء باثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فلما رأى ذلك قال: من أنت قلت: أنا أبو سعيد الخدري قال: صاحب رسول الله ﷺ قلت نعم فمضى وتركني.

قال المدائني وجيء إلى مسلم بسعيد بن المسيب فقال له بايع فقال أبايع على سيرة أبي بكر وعمر فأمر بضرب عنقه فشهد رجل إنه مجنون فخلى سبيله وقال المدائني عن عبد الله القرشي وأبي إسحاق التميمي قالا: لما انهزم أهل المدينة يوم الحرة صاح النساء والصبيان فقال ابن عمر بعثمان ورب الكعبة قال المدائني عن شيخ من أهل المدينة قال: سألت الزهري كم كان القتلى يوم الحرة قال سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ووجوه الموالي وممن لا أعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف قال وكانت الوقعة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين وانتهبوا المدينة ثلاثة أيام قال الواقدى وأبو معشر: كانت وقعة الحرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين.....(إلى أن قال)...وقد روى ابن عساكر....عن المدائني قال: لما قتل أهل الحرة هتف هاتف بمكة على أبي قبيس مساء تلك الليلة وابن الزبير جالس يسمع:

والصائمون القانتون	**أولوا العبادة والصلاح**
المهتدون المحسنون	**السابقون إلى الفلاح**
ماذا بواقم والبقيع	**من الجحاجحة الصباح**
وبقاع يثرب ويحهنن	**من النوادب والصياح**
قتل الخيار بنوا الخيار	**ذوى المهابة والسماح**

فقال ابن الزبير: يا هؤلاء قتل أصحابكم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد أخطأ يزيد خطأ فاحشا في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام وهذا خطأ كبير فاحش مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم وقد تقدم أنه قتل الحسين وأصحابه على يدي عبيد الله بن زياد وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية مالا يحد ولا يوصف مما لا يعلمه إلا الله عز وجل وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ودوام أيامه من غير منازع فعاقبه الله بنقيض قصده وحال بينه وبين ما يشتهيه فقصمه الله قاصم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد.

قال البخاري في صحيحه حدثنا الحسين بن الحارث ثنا الفضل بن موسى ثنا الجعد عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص عن أبيها قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء"** وقد رواه مسلم من حديث أبي عبد الله القراظ المديني واسمه دينار عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: **"لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص أو ذوب الملح في الماء"** وفي رواية لمسلم من طريق أبي عبد الله القراظ عن سعد وأبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **"من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء"**وقال الإمام أحمد حدثنا أنس بن عياض ثنا يزيد بن خصيفة عن عطاء بن يسار عن السائب بن خلاد أن رسول الله ﷺ قال: **"من أخاف أهل المدينة ظلما أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا"** ورواه النسائي من غير وجه عن علي ابن حجر عن إسماعيل بن جعفر عن يزيد بن خصيفة عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن عطاء بن يسار عن خلاد بن منجوف بن الخزرج أخبره فذكره وكذلك رواه الحميدي عن عبد العزيز بن أبي حازم عن يزيد بن حصيفة ورواه النسائي أيضا عن يحيى بن حبيب بن عربي عن حماد عن يحيى بن سعيد عن مسلم بن أبي مريم عن عطاء بن يسار عن ابن خلاد وكان من أصحاب النبي ﷺ فذكره وقال ابن وهب: أخبرني حيوة بن شريح عن ابن الهاد عن أبي بكر عن عطاء بن يسار عن السائب بن خلاد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"من أخاف أهل المدينة أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"** وقال الدارقطني ثنا علي بن أحمد بن القاسم ثنا أبي ثنا سعيد بن عبد الحميد بن جعفر ثنا أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن يزيد بن عبد الله بن أنيس الأنصاري عن محمد وعبد الرحمن ابني جابر بن عبد الله قالا: خرجنا مع أبينا يوم الحرة وقد كف بصره فقال: تعس من أخاف رسول الله ﷺ فقلنا: يا أبة وهل أحد يخيف رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"من أخاف أهل هذا الحي من الأنصار فقد أخاف ما بين هذين ووضع يده على جبينه"**.

قال الدارقطني: تفرد به سعد بن عبد العزيز لفظا وإسناده وقد استدل بهذا الحديث وأمثاله من ذهب إلى الترخيص في لعنة يزيد بن معاوية وهو رواية عن أحمد بن حنبل اختارها الخلال وأبو بكر عبد العزيز والقاضي أبو يعلى وابنه القاضي أبو الحسين وانتصر لذلك أبو الفرج بن الجوزي في مصنف مفرد وجوز لعنته ومنع من ذلك آخرون وصنفوا فيه أيضاً لئلا يجعل لعنة وسيلة إلى أبيه أو أحد من الصحابة وحملوا ما صدر عنه من سوء التصرفات على أنه تأول واخطأ وقالوا إنه كان مع ذلك إماماً فاسقاً والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قولي العلماء بل يجوز الخروج عليه[1] لما في ذلك من إثارة الفتنة ووقوع الهرج وسفك الدماء الحرام ونهب الأموال وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا.

[1] لاحظ أن كلام ابن كثير رحمه الله هنا في الإمام إذا فسق وأما الكفر البواح فهو أكبر فتنة وأعظمها والنصوص الشرعية واضحة وصريحة في هذه المسألة يُعزل ويُخرج عليه مع القدرة (وشرط القدرة للوجوب وليس للجواز فليُتنبه) وليس له ولاية على قُلامة ظُفْر ولا بيعة ولا عهد ولا أمان ....الخ.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن يزيد لما بلغه خبر أهل المدينة وما جرى عليهم عند الحرة من مسلم بن عقبة وجيشه فرح بذلك فرحا شديدا فانه كان يرى أنه الإمام وقد خرجوا عن طاعته وأمروا عليهم غيره فله قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة كما أنذرهم بذلك على لسان النعمان بن بشير ومسلم بن عقبة كما تقدم وقد جاء في الصحيح من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان وأما ما يوردونه عنه من الشعر في ذلك واستشهاده بشعر ابن الزبعري في وقعة أحد التي يقول فيها:

ليت أشياخي ببدر شهدوا — جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حلت بفنائهم بركها — واستمر القتل في عبد الأشل
قد قتلنا الضعف من أشرافهم — وعدنا ميل بدر فاعتدل

وقد زاد بعض الروافض فيها فقال:

ليت هاشم بالملك فلا — ملك جاءه ولا وحي نزل

فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين وإن لم يكن قاله فلعنة الله على من وضعه عليه ليشنع به عليه وسيذكر في ترجمة يزيد بن معاوية وما ذكر عنه وما قيل فيه وما كان يعانيه من الأفعال والقبائح والأقوال في السنة الآتية فانه لم يمهل بعد وقعة الحرة وقتل الحسين إلا يسيراً حتى قصمه الله الذي قصم الجبابرة قبله وبعده إنه كان عليما قديرا) .

قال ابن كثير رحمه الله أن مسلم بن عقبة قال عند وفاته : (اللهم إني لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أحب إلي من قتل أهل المدينة وأجزى عندي في الآخرة وإن دخلت النار بعد ذلك إني لشقي ثم مات قبحه الله ودفن بالمسلك فيما قاله الواقدي ثم أتبعه الله بيزيد بن معاوية فمات بعده في ربيع الأول لأربع عشرة ليلة خلت منه فما متعهما الله بشيء مما رجوه وأملوه بل قهرهم القاهر فوق عباده وسلبهم الملك ونزعه منهم من يتزع الملك ممن يشاء).

سعيد بن جبير وهربه لمدة 12 سنة من الحجاج بن يوسف الثقفي

بعد أن انتصر فاسق بني ثقيف (المُبير) الحجاج بن يوسف الثقفي على ابن الأشعث أراد الإنتقام من كل مَـــنْ ساند ابن الأشعث على الخروج عليه وهو الظالم الباطش الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (لو جاءت كلُّ أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لرجحنا).

وقال عنه الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء: (الحجاج أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين كهلاً وكـــان ظلوماً جباراً ناصبياً خبيثاً سافكاً للدماء وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن قد سقت من سوء سيرته في تاريخي الكبير وحصاره لابن الزبير بالكعبة ورمية إياها بالمنجنيق وإذلاله لأهل الحرمين ثم ولايته على العراق والمشرق كله عشرين سنة وحروب ابن الأشعث له وتأخيره للصـــلوات إلى أن استأصـــله الله فنسبه ولا نحبه بل نبغضه في الله فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه وأمره إلى الله وله توحيد في الجملة ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء).

أما سعيد بن جبير رحمه الله فقال عنه الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء: (سعيد بن جبير ابن هشـــام الإمـــام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد أبو محمد ويقال أبو عبد الله الأسدي الوالبي مولاهم الكوفي أحد الأعلام).

وقال عنه ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية: (سعيد بن جبير الأسدي الوالي مولاهم أبو محمد ويقال أبو عبـــد الله الكوفي المكي من أكابر أصحاب ابن عباس كان من أئمة الإسلام في التفسير والفقه وأنواع العلـــوم وكثـــرة العمل الصالح رحمه الله وقد رأى خلقا من الصحابة وروي عن جماعة منهم وعنه خلق من التابعين يقال إنه كان يقرأ القرآن في الصلاة فيما بين المغرب والعشاء ختمة تامة وكان يقعد في الكعبة لقعدة فيقرأ فيها الختمـــة وربمـــا قرأها في ركعة في جوف الكعبة وروى عنه أنه ختم القرآن مرتين ونصفا في الصلاة في ليلة في الكعبة وقال سفيان الثوري عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال: لقد مات سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه وكان في جملة من خرج مع ابن الأشعث على الحجاج فلما ظفر الحجاج هرب سعيد إلى أصبهان ثم كـــان يتردد في كل سنة إلى مكة مرتين مرة للعمرة ومرة للحج وربما دخل الكوفة في بعض الأحيان فحدث بها وكـــان بخراسان لا يتحدث لأنه كان لا يسأله أحد عن شيء من العلم هناك وكان يقول إن مما يهمني ما عندي من العلم وددت أن الناس أخذوه واستمر في هذا الحال مختفيا من الحجاج قريبا من ثنتي عشرة سنة ثم أرسله خالد القسري من مكة إلى الحجاج).

يقول الذهبي رحمه الله في السير: (طال اختفاؤه فإن قيام القراء (أي العلماء) على الحجاج كان في سنة اثنتين وثمانين وما ظفروا بسعيد إلى سنة خمس وتسعين السنة التي قلع الله فيها الحجاج).

قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية: (مقتل سعيد بن جبير رحمه الله قال ابن جرير: وفي هذه السنة (أي سنة 95هـ) قَتلَ الحجاجُ بن يوسف سعيدَ بنَ جبير وكان سبب ذلك أن الحجاج كان قد جعله على نفقات الجند حين بعثه مع ابن الأشعث إلى قتال رتبيل ملك الترك فلما خلعه ابن الأشعث خلعه معه سعيد بن جبير فلما ظفر الحجاج بابن الأشعث وأصحابه هرب سعيد بن جبير إلى أصبهان فكتب الحجاج إلى نائبها أن يبعثه إليه فلما سمع بذلك سعيد هرب منها ثم كان يعتمر في كل سنة ويحج ثم إنه لجأ إلى مكة فأقام بها إلى أن وليها خالد بن عبد الله القسري فأشار من أشار على سعيد بالهرب منها فقال سعيد والله لقد استحييت من الله مما أفر ولا مفر من قدره وتولى على المدينة عثمان بن حيان بدل عمر بن عبد العزيز فجعل يبعث من بالمدينة من أصحاب ابن الأشعث من العراق إلى الحجاج في القيود فتعلم منه خالد بن الوليد القسري فعين من عنده من مكة سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وطلق ابن حبيب ويقال إن الحجاج أرسل إلى الوليد يخبره أن بمكة أقواماً من أهل الشقاق فبعث خالد بهؤلاء إليه ثم عفا عن عطاء وعمرو بن دينار لأنهما من أهل مكة وبعث بأولئك الثلاثة فأما طلق فمات في الطريق قبل أن يصل وأما مجاهد فحُبس فما زال في السجن حتى مات الحجاجُ وأما سعيد ابن جبير فلما أوقف بين يدي الحجاج .....الخ)

وأنقل هنا حوار سعيد بن جبير ولكن من كتاب وفيّات الأعيان لابن خلكان رحمه الله يقول: (

قال **الحجاج**: ما أسمك؟

سعيد: سعيد بن جبير.

الحجاج: بل أنت شقي بن كسير.

سعيد: بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

الحجاج: شقَيت أمك وشقيت أنت.

سعيد: الغيب يعلمه غيرك.

الحجاج: لا بد لك بالدنيا نارا تلظى.

سعيد: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها.

الحجاج: ما قولك في محمد؟.

سعيد: نبي الرحمة وإمام الهدى.

الحجاج: ما قولك في علي, أهو في الجنة أم هو في النار؟..

سعيد: لو دخلتها وعرفت من فيها, عرفت أهلها.

الحجاج: ما قولك في الخلفاء؟.

سعيد: لست عليهم بوكيل.

الحجاج: فأيهم أعجب إليك؟.

سعيد: أرضاهم لخالقي.

الحجاج: فأيهم أرضى للخالق؟.

سعيد: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: أحب أن تصدُقَني.

سعيد: إن لم أحبك لن أكذبك.

الحجاج: فما بالك لم تضحك؟.

سعيد: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين, والطين تأكله النار!!.

الحجاج: فما بالنا نضحك؟.

سعيد: لم تستو القلوب.

ثم أمر **الحجاج** باللؤلؤ والزبرجد والياقوت, فجمعه بين يديه.

قال **سعيد**: إن كنت جمعت هذا لتتقي به فزع يوم القيامة فصالح وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت, ولا خير في شيء من الدنيا إلا ما طاب وزكا.

ثم دعا **الحجاج** بالعود والناي, فلما ضرب بالعود ونفخ بالناي بكى **سعيد**.

فقال: ما يبكيك؟ أهو اللعب؟.

قال **سعيد**: هو الحزن, أما النفخ فذكرني يوما عظيما يوم ينفخ في الصور, وأما العود فشجرة قطعت من غير حق!! وأما الأوتار فمن الشاة تبعث يوم القيامة!!.

قال **الحجاج**: ويلك يا سعيد.

فقال: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

قال **الحجاج**: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك؟.

فقال: اختر أنت لنفسك فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أتريد أن أعفو عنك؟.

فقال: إن كان العفو فمن الله, وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

قال **الحجاج**: اذهبوا به فاقتلوه, فلما خرج ضحك فأخبر الحجاج بذلك فردوه إليه.

وقال: ما أضحكك؟.

فقال: عجبت من جرأتك علي الله وحلم الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط.

وقال: اقتلوه.

فقال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين.

قال الحجاج: وجهوا به لغير القبلة.

قال سعيد: فأينما تولوا فثمّ وجه الله.

قال الحجاج: كبوه على وجهه.

قال سعيد: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه.

قال سعيد: أما أنا فأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله, خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة, اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي).

وذكر الذهبي رحمه الله في السير بسنده: (بلغني أن الحجاج لما ذكر له سعيد بن جبير أرسل إليه قائداً يسمى المتلمس بن أحوص في عشرين من أهل الشام فبينما هم يطلبونه إذا هم براهب في صومعته فسألوه عنه فقال: صِفوه لي فوصفوه فدلهم عليه فانطلقوا فوجدوه ساجدا يناجي بأعلى صوته فدنوا وسلموا فرفع رأسه فأتم بقية صلاته ثم رد عليهم السلام فقالوا: إنا رسل الحجاج إليك فأجبه قال: ولا بد من الإجابة قالوا: لابد فحمد الله وأثنى عليه وقام معهم حتى انتهى إلى دير الراهب فقال الراهب: يا معشر الفرسان أصبتم صاحبكم قالوا: نعم فقال: اصعدوا فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير ففعلوا وأبى سعيد أن يدخل فقالوا: ما نراك إلا وأنت تريد الهرب منا قال: لا ولكن لا أدخل منزل مشرك أبداً قالوا: فإنا لا ندعك فإن السباع تقتلك قال: لا ضير إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرسا تحرسني قالوا: فأنت من الأنبياء قال: ما أنا من الأنبياء ولكن عبد من عبيد الله مذنب قال الراهب: فليعطني ما أثق به على طمأنينة فعرضوا على سعيد أن يعطي الراهب ما يريد قال: إني أعطي العظيم الذي لا شريك له لا أبرح مكاني حتى أصبح إن شاء الله فرضي الراهب بذلك فقال لهم: اصعدوا وأوتروا القسي لتنفروا السباع عن هذا العبد الصالح فإنه كره الدخول في الصومعة لمكانكم فلما صعدوا وأوتروا القسي إذا هم بلبوة (أنثى الأسد) قد أقبلت فلما دنت من سعيد تحكّكت به وتمسحت به ثم ربضت قريباً منه وأقبل الأسد يصنع كذلك فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله ففسر له سعيد ذلك كله فأسلم وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه ويقبلون يديه ورجليه ويأخذون التراب الذي وطئه فيقولون يا سعيد حلفنّا الحجاج بالطلاق والعتاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نشخصك إليه فمرنا بما شئت قال: امضوا لأمركم فإني لائذ بخالقي ولا راد لقضائه فساروا حتى بلغو واسطا فقال سعيد: قد تحرمت بكم وصحبتكم ولست أشك أن أجلي قد حضر فدعوني الليلة آخذ أهبة الموت واستعد لمنكر ونكير وأذكر عذاب القبر فإذا أصبحتم فالميعاد بيننا المكان الذي تريدون فقال بعضهم: لا تريدون أثرا بعد عين وقال بعضهم: قد بلغتم أمنكم واستوجبتم جوائز الأمير فلا تعجزوا عنه وقال بعضهم: يعطيكم ما أعطى الراهب ويلكم أما لكم عبرة بالأسد ونظروا إلى

سعيد قد دمعت عيناه وشعث رأسه واغبر لونه و لم يأكل و لم يشرب و لم يضحك منذ يوم لقوه وصحبوه فقالوا: يا خير أهل الأرض ليتنا لم نعرفك و لم نسرح إليك الويل لنا ويلا طويلا كيف ابتلينا بك اعذرنا عند خالقنا يـــوم الحشر الأكبر فإنه القاضي الأكبر والعدل الذي لا يجور قال: ما أعذرني لكم وأرضاني لما سبق من علم الله فيَّ فلما فرغوا من البكاء والمجاوبة قال كفيله: أسألك بالله لما زودتنا من دعائك وكلامك فإنا لن نلقى مثلك أبدا ففعـــل ذلك فخلوا سبيله فغسل رأسه ومدرعته وكساءه وهم محتفون الليل كله ينادون بالويل واللهف فلما انشق عمود الصبح جاءهم سعيد فقرع الباب فنزلوا وبكوا معه وذهبوا به إلى الحجاج وآخر معه فـــدخلا فقـــال الحجـــاج: أتيتموني بسعيد بن جبير قالوا: نعم وعاينا منه العجب فصرف بوجهه عنهم فقال: أدخلوه علي فخرج المـــتلمس فقال (لسعيد) أستودعك الله وأقرأ عليك السلام فأدخل عليه فقال: ما اسمك قال سعيد بن جبير: قال: أنـــت شقي بن كسير............وأورد القصة التي أوردها ابن خلكان).

وقال أيضاً رحمه الله في سِيَره: (عن داود بن أبي هند قال: لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال: ما أراني إلا مقتولا وسأخبركم: إني كنت أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء ثم سألنا الله الشهادة فكلا صاحبي رزقها وأنا أنتظرها قال فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء قلت: ولما علم من فضل الشهادة ثبـــت للقتـــل و لم يكترث ولا عامل عدوه بالتقية المباحة له رحمه الله تعالى).

عبد الله بن الحارث الهاشمي رحمه الله يهرب من الحجاج

ذكر الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء : (أن عبد الله بن الحارث ابن نوفل الهاشمي الملقب (ببة) والذي ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم......قال ابن سعد: هو ثقة تابعي أتت به أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم إذ دخل عليها فتفل في فيه ودعا له قال وخرج هاربا من البصرة إلى عمان خوفا من الحجاج عند فتنة عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث فمات بعمان في سنة أربع وثمانين وقال أبو عبيد: مات سنة ثلاث وثمانين قلت: (أي الذهبي) كان من أبناء الثمانين وحديثه في الكتب الستة وكان كثير الحديث يحدث أيضاً عن صفوان بن أمية وأم هانئ بنت أبي طالب وحكيم بن حزام).

الشعبي رحمه الله يختفي ثمانية أشهر من المختار بن عبيد

ذكر الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء: (أن الشعبي رحمه الله أقام في المدينة ثمانية أشهر هاربا من المختار بن عبيد).

الحسن البصري رحمه الله يتوارى عن الحجاج ولم يستطع تشييع جنازة ابنته

ذكر الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء أن الحسن البصري رحمه الله ظل متوارياً من الحجاج لدرجة أن ابنةً له ماتت فلم يقدر على الخروج لتشييع جنازتها فأناب ابن سيرين بذلك (فعن ثابت البناني قال: كان الحسن متوارياً من الحجاج فماتت بنتٌ له فبادرتُ إليه رجاءَ أنْ يقول لي صلِّ عليها فبكى حتى ارتفع نحيبه ثم قال لي: اذهب إلى محمد بن سيرين فقل له ليصلِّ عليها فعرفَ حين جاء الحقائق أنه لا يعدل بابن سيرين أحداً) .

وقال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية: (روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه أنه أخبر بموت الحجاج مراراً فلما تحقق وفاته قال: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وروى غير واحد: أن الحسن لما بُشر بموت الحجاج سجد شكرا لله تعالى وكان مختفياً فظهر وقال اللهم أمته فأذهب عنا سنته وقال حماد بن أبي سليمان: لما أخبرت إبراهيم النخعي بموت الحجاج بكى من الفرح وقال أبو بكر بن أبي خيثمة ثنا سليمان بن أبي شيخ ثنا صالح بن سليمان قال: قال زياد بن الربيع بن الحارث لأهل السجن: يموت الحجاج في مرضه هذا في ليلة كذا وكذا فلما كانت تلك الليلة لم ينم أهل السجن فرحاً جلسوا ينظرون حتى يسمعوا الناعية وذلك ليلة

سبع وعشرين من شهر رمضان وقيل كان ذلك لخمس بقين من رمضان وقيل في شوال من هذه السنة وكان عمره إذ ذاك خمساً وخمسين سنة لأن مولده كان عام الجماعة سنة أربعين وقيل بعدها بسنة وقيل قبلها بسنة مات بواسط وعفى قبره وأجرى عليه الماء لكيلا ينبش ويحرق والله أعلم).

سفيان الثوري رحمه الله يفر ويهرب من الخليفة العباسي

ذكر الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء: (قال: لما استخلف المهدي بعث إلى سفيان (الثوري رحمه الله) فلما دخل عليه خلع خاتمه فرمى به إليه وقال: يا أبا عبد الله هذا خاتمي فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة فأخذ الخاتم بيده وقال: تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين قلت لعطاء قال له: يا أمير المؤمنين قال: نعم قال: أتكلم على أني آمن قال: نعم قال: لا تبعث إلي حتى آتيك ولا تعطني حتى أسألك قال: فغضب وهمَّ به فقال له كاتبه: أليس قد أمّنْتَه قال: بلى فلما خرج حف به أصحابه فقالوا: ما منعك وقد أمرك أن تعمل في الأمة بالكتاب والسنة فاستصغر عقولهم وخرج هارباً إلى البصرة وعن سفيان قال ليس أخاف إهانتهم إنما أخاف كرامتهم فلا أرى سيئتهم سيئة لم أر للسلطان مثلاً إلا مثلاً ضرب على لسان الثعلب قال: عرفت للكلب نيفاً وسبعين دستاناً (الدستان:المكر والخديعة) ليس منها دستان خيرا من أن لا أرى الكلب ولا يراني).

وقال الذهبي رحمه الله: (قال محمد بن سعد: طُلب سفيان فخرج إلى مكة فنفذ المهدي إلى محمد بن إبراهيم وهو على مكة في طلبه فأعلم سفيان بذلك وقال له محمد: إن كنت تريد إتيان القوم فاظهر حتى أبعث بك إليهم وإلا فتوار قال: فتوارى سفيان وطلبه محمد وأمر منادياً فنادى بمكة من جاء بسفيان فله كذا وكذا فلم يزل متواريا بمكة لا يظهر لأهل العلم ومن لا يخافه وعن أبي شهاب الحناط قال: بعثت أخت سفيان بجراب معي إلى سفيان وهو بمكة فيه كعك وخشكنان فقدمت فسألت عنه فقيل لي: ربما قعد عند الكعبة مما يلي الحناطين فأتيته فوجدته مستلقيا فسلمت عليه فلم يسائلني تلك المساءلة و لم يسلم علي كما كنت أعرفه فقلت: إن أختك بعثت معي بجراب فاستوى جالساً وقال: عجل بها فكلمته في ذلك فقال: يا أبا شهاب لا تلمني فلي ثلاثة أيام لم أذق فيها ذواقا فعذرته قال ابن سعد: فلما خاف من الطلب بمكة خرج إلى البصرة ونزل قرب مترل يحي بن سعيد ثم حوله إلى جواره وفتح بينه وبينه بابا فكان يأتيه بمحدثي أهل البصرة يسلمون عليه ويسمعون منه).

أصبغ بن الفرج رحمه الله يهرب من المعتصم أيام المحنة

ذكر الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء عن أصبغ بن الفرج الذي وصفه بقوله: (الشيخ الإمام الكبير مفتي الديار المصرية وعالمها أبو عبد الله الأموي مولاهم المصري ...... ذكره ابن معين فقال: كان من أعلم خلق الله برأي مالك يعرفها مسألةً مسألة متى قالها مالك ومن خالفه فيها وقال أحمد بن عبد الله: أصبغ ثقة صاحب سنة

وقال أبو حاتم كان أجل أصحاب ابن وهب وقال أبو سعيد بن يونس: كان يحيى بن عثمان بن صالح يقول: هو من أولاد عبيد المسجد كان بنو أمية يشترون للمسجد عبيدا يخدمونه فأصبغ من أولاد أولئك وكـــان مضـــطلعاً بالفقه والنظر .... وكان ذكر للقضاء في مجلس الأمير عبد الله بن طاهر فسبقه سعيد بن عفير قال: وحدثني علي بن الحسن بن قديد عن يحيى بن عثمان بن صالح عن أبي يعقوب البويطي أنه كان حاضراً في مجلس ابن طاهر حين أمر بإحضار شيوخ مصر قال: فقال لنا إني جمعتكم لترتادوا لأنفسكم قاضياً فكان أول من تكلم يحيى بن بكير ثم تكلم ابن ضمرة الزهري فقال: أصلح الله الأمير أصبغ بن الفرج الفقيه العالم الورع وذكر باقي الحكاية قال بعض العلماء: ما أخرجت مصر مثل أصبغ وقال: أبو نصر الفقيه سمعت المزني والربيع يقولان: كنا نأتي أصبغ قبل قدوم الشافعي فنقول له علمنا مما علمك الله تعالى قال مطرف بن عبد الله: أصبغ أفقه من عبد الله بن عبد الحكم وذكر علي بن قديد عمن حدثه قال: كان بين أصبغ وابن عبد الحكم مباعدة وكان أحدهما يرمي الآخر بالبهتان وقـــال ابن وزير كان أصبغ خبيث اللسان كان صاعقة قال ابن قديد كتب المعتصم في أصبغ ليحمل إليه في المحنة فهرب رحمه الله واختفى بحلوان وفي ذلك يقول الجمل الشاعر:

وطويت أصبغ حقبة في بيته … فسترنه جدر البيوت الستر
أبدلته برجاله وجموعه … خرقا مقاعدة النساء الخدر
فإذا أراد مع الظلام لحاجة … أخذ النقاب وفضل مرط المعجر)

أحمد بن حنبل رحمه الله لا يخرج إلى صلاة ولا إلى غيرها حتى هلك الواثق

جاء في مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي رحمه الله أن أحمد بن حنبل رحمه الله حين صدع بعقيدته في مســـألة خلق القرآن أيام الخليفة الواثق وابتلي في ذلك بلاء عظيماً قرر الاختفاء حتى مات الواثق قال إبراهيم بن هـــاني : (اختفى عندي أحمد بن حنبل ثلاثة أيام .. ثم قال أطلب لي موضعاً حتى أتحول إليه. قلت: لا آمن عليك يا أبا عبد الله . فقال: إفعل ! فإذا فعلت أفدتك ، وطلبت له موضعاً فلما خرج قال لي: اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم تحول ، ليس ينبغي أن يتبع الرسول ﷺ في الرخاء ويترك في الشدة) .

وفي رواية حنبل في شأن اختفاء الإمام أحمد في حياة الواثق قال: (فلم يزل أبو عبد الله مختفياً في القرب ، ثم عاد إلى منزله بعد أشهر أو سنة لما طُفئ خبره و لم يزل في البيت مختفياً لا يخرج إلى الصلاة ولا غيرها حتى هلك الواثق.

وقال الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء: (فاختفى أبو عبد الله بقية حياة الواثق وكانت تلك الفتنة وقتل أحمد بن نصر الخزاعي و لم يزل أبو عبد الله مختفيا في البيت لا يخرج إلى صلاة ولا إلى غيرها حتى هلك الواثق) وذكـــر الذهبي رحمه الله قصة إبراهيم ابن هاني التي أوردها ابن الجوزي.

وقال الذهبي رحمه الله: (قال الميموني: قال لي القاضي محمد بن محمد بن إدريس الشافعي: قال لي أحمد: أبوك أحد الستة الذين أدعو لهم سحرا ، وعن إبراهيم بن هانئ النيسابوري قال: كان أبو عبد الله حيث توارى من السلطان عندي وذكر من اجتهاده في العبادة أمرا عجبا قال: وكنت لا أقوى معه على العبادة وأفطر يوما واحدا واحتجم).

الحسن بن علي البربهاري رحمه الله أرادوا حبسه فهرب

قال الذهبي رحمه الله عن البربهاري رحمه الله في سير أعلام النبلاء: (شيخ الحنابلة القدوة الإمام أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري الفقيه كان قوالاً بالحق داعيةً إلى الأثر لا يخاف في الله لومة لائم).
وذكر قصة اختفائه المبكية فقال رحمه الله: (قال أبو الحسين بن الفراء: كان للبربهاري مجاهدات ومقامات في الدين وكان المخالفون يغلظون قلب السلطان عليه ففي سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة أرادوا حبسه فاختفى وأخـــذ كبار أصحابه وحملوا إلى البصرة فعاقب الله الوزير ابن مقلة وأعاد الله البربهاري إلى حشمته وزادت وكثر أصحابه فبلغنا أنه اجتاز بالجانب الغربي فعطس فشمته أصحابه فارتفعت ضجتهم حتى سمعها الخليفـــة فـــأخبر بالحـــال فاستهولها ثم لم تزل المبتدعة توحش قلب الراضي حتى نودي في بغداد لا يجتمع اثنان من أصـــحاب البربهـــاري فاختفى وتوفي مستتراً في رجب سنة ثمان وعشرين وثلاث مائة فدفن بدار أخت توزون فقيل: إنه لما كُفّن وعنده الخادم صلى عليه وحده فنظرت هي من الروشن فرأت البيت ملآن رجالاً في ثياب بيض يصلون عليه فخافـــت وطلبت الخادم فحلف أن الباب لم يُفتح).

أبو بكر النابلسي رحمه الله يهرب من العبيديين

وصف الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء النابلسي رحمه الله بقوله: (الإمام القدوة الشهيد أبو بكر محمد بن احمد بن سهل الرملي ويعرف بابن النابلسي ....قال أبو ذر الحافظ سجنه بنو عبيد وصلبوه علـــى الســـنة سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ويقول: كان يقول وهو يسلخ: ﴿ **كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً** ﴾ (الأحزاب من الآية 6) .

وذكر أنه رحمه الله هرب مرات من العبيدية قال: (قال أبو الفرج بن الجوزي: أقام جوهر القائد لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي وكان يترل الأكواخ فقال له: بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم وجب أن يرمي في الروم سهما وفينا تسعة قال: ما قلت هذا بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم وجب أن يرميكم بتسعه وأن يرمي العاشر فيكم أيضاً فإنكم غيرتم الملة وقتلتم الصالحين وادعيتم نور الإلهية فشهره ثم ضربه ثم أمر يهوديا فسلخه قال ابن الأكفاني: توفي العبد الصالح الزاهد أبو بكر بن النابلسي كان يرى قتال المغاربة هرب من الرملة إلى دمشق فأخذه متوليها أبو محمود الكتامي وجعله في قفص خشب وأرسله إلى مصر فلما وصل قالوا: أنت القائل لو أن معي عشرة أسهم وذكر القصة فسلخ وحشي تبناً وصلب قال معمر بن احمد بن زياد الصوفي اخبرني الثقة أن أبا بكر سلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه فكان يذكر الله ويصبر حتى بلغ الصدر فرحمه السلاخ فوكزه بالسكين موضع قلبه فقضى عليه وأخبرني الثقة أنه كان إماماً في الحديث والفقه صائم الدهر كبير الصولة عند العامة والخاصة ولما سلخ كان يسمع من جسده قراءة القرآن فغلب المغربي بالشام وأظهر المذهب الرديء وأبطل التراويح والضحى وأمر بالقنوت في الظهر وقتل النابلسي سنة ثلاث وكان نبيلاً رئيس الرملة فهرب فأُخذَ من دمشق وقيل: قال شريف ممن يعانده لما قدم مصر: الحمد لله على سلامتك قال: الحمد لله على سلامة ديني وسلامة دنياك قلت: (القائل الذهبي): لا يوصف ما قَلَبَ هؤلاء العبيدية الدينَ ظهراً لبطن واستولوا على المغرب ثم على مصر والشام وسبوا الصحابة حكى ابن السعساع المصري: أنه رأى في النوم أبا بكر بن النابلسي بعدما صلب وهو في أحسن هيئة فقال: ما فعل الله بك فقال:

حباني مالكي بدوام عز ... وواعدني بقرب الانتصار

وقربني وأدناني إليه ... وقال انعم بعيش في جواري

الخاتمة

في ختام هذه الرسالة أقول لإخواني المجاهدين المطاردين والذين يطلبهم طواغيت الشرق والغرب أثبتوا على ما أنتم عليه فها هم قدواتكم من الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والعلماء والصالحين على مرِّ التاريخ وقد بوَّب البخاري رحمه الله في صحيحه تحت كتاب الإيمان بقوله: بابٌ (من الدين الفرار من الفتن) وأورد حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ **"يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن".**

وهذا يدل على أن الإختفاء والفرار من الطواغيت أنه من الإيمان والدين ..وليس من الجبن والخور كما يظنه البعض وكيف يكون منهج وطريقة الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والعلماء والصالحين جبناً وخوراً؟؟!.

قال ابن رجب رحمه الله في شرحه لصحيح البخاري المسمى (فتح الباري) : (بوب البخاري على أن الفرار من الفتن من الدين ؛ وليس في الحديث إلا الإشعار بفضل من يفر بدينه من الفتن ؛ لكن لما جعل الغنم خير مال المسلم في هذه الحال دل على أن هذا الفعل من خصال الإسلام والإسلام هو الدين).

ويقول رحمه الله فر رسالة (كشف الكربة في وصف أهل الغربة): (هؤلاء أخص أهل الغربة ، وهم الفراون بدينهم من الفتن ، وهم التراع من القبائل الذين يُحشرون مع عيسى عليه السلام وهم بين أهل الآخرة أعز من الكبريت الأحمر ، فكيف يكون حالهم بين أهل الدنيا ، وتخفى حالهم غالباً على الفرقتين كما قال :

تواريت عن دهري بظل جناحه — فعيني ترى دهري وليس يراني
ولو تسأل الأيام ما اسمي ؟ لما درت — وأين مكاني ؟ ما عرفن مكاني

أيها المجاهدون المطاردون أنتم اليوم قليلٌ وستكثرون ، ومستضعفون وسَتقوون ، ووالذي نفسي بيده إن العاقبة لكم والمستقبل للإسلام بعزِّ عزيز أو بذلِّ ذليل عزًّا يعزُّ الله به الإسلامَ وأهلَه وذلاًّ يُذل الله به الكفرَ وأهلَه فاصبروا وأذكّركم بقول الله سبحانه وتعالى وهو يمتنُّ على الرعيل الأول والذي كان حالهم مثل حالكم يقول سبحانه: **﴿وَاذْكُرُوَاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطّفَكُمُ النّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مّنَ الطّيّبَاتِ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.**

يقول ابن كثير رحمه الله: (ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم, وإحسانه إليهم, حيث كانوا قليلين فكثَّرهم ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم , فأطاعوه وامتثلوا جميع

ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي, كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم, فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها وقيض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره, وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ , قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرْضِ**﴾, قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً, وأشقاه عيشاً, وأجوعه بطوناً, وأعراه جلوداً وأبينه ضلالاً, من عاش منهم عاش شقياً, ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يأكلون, والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر, وأهل الشكر في مزيد من الله).

ولسيد قطب رحمه الله كلام نفيس حول هذه الآية والآيات التي قبلها والتي تدعو إلى الإستجابة لله والرسول بالجهاد في سبيل الله وأن سلوك هذا الطريق هو الحياة وقد عاش رحمه الله في وقت استضعاف لم يكن فيه جهاد و لم ير المطاردة والتخطف الذي تمر به أمة الإسلام اليوم حين سلكت طريق الحياة الحقيقية (طريق الجهاد) يقول رحمه الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾.

إن رسول الله ﷺ إنما يدعوهم إلى ما يحييهم . . إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة , وبكل معاني الحياة . .

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول , وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة ; ومن ضغط الوهم والأسطورة , ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة , ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء . .

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله ; تعلن تحرر الإنسان وتكريمه بصدورها عن الله وحده , ووقوف البشر كلهم صفا متساوين في مواجهتها ; لا يتحكم فرد في شعب , ولا طبقة في أمة , ولا جنس في جنس , ولا قوم في قوم . . ولكنهم ينطلقون كلهم أحراراً متساوين في ظل شريعةٍ صاحبها الله رب العباد .

ويدعوهم إلى منهج للحياة , ومنهج للفكر , ومنهج للتصور ; يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة , المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان , العليم بما خلق ; هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد ; ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء .

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم , والثقة بدينهم وبربهم , والانطلاق في الأرض كلها لتحرير الإنسان بجملته ; وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده ; وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله , فاستلبها منه الطغاة !

ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله , لتقرير ألوهية الله سبحانه في الأرض وفي حياة الناس ; وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ; ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله سبحانه وحاكميته وسلطانه ; حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده ; وعندئذ يكون الدين كله لله . حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة .

ذلك مجمل ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة .

إن هذا الدين منهج حياة كاملة , لا مجرد عقيدة مستسرة . منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وتترقى . ومن ثم هو دعوة إلى الحياة في كل صورها وأشكالها . وفي كل مجالاتها ودلالاتها . والتعبير القرآني يجمل هذا كله في كلمات قليلة موحية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** . .

استجيبوا له طائعين مختارين ; وإن كان الله سبحانه قادراً على قهركم على الهدى لو أراد

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾..

ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة . . **﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾** فيفصل بينه وبين قلبه ; ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه , ويصرفه كيف شاء , ويقلبه كما يريد . وصاحبه لا يملك منه شيئا وهو قلبه الذي بين جنبيه !

إنها صورة رهيبة حقاً ; يتمثلها القلب في النص القرآني , ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب , ووصف هذا الإيقاع في العصب والحس !

إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة , والحذر الدائم , والاحتياط الدائم . اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته ; والحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقا ; والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس . . والتعلق الدائم بالله سبحانه مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته , أو غفلة من غفلاته , أو دفعة من دفعاته . .

ولقد كان رسول الله ﷺ وهو رسول الله المعصوم يكثر من دعاء ربه:**"اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"** . . فكيف بالناس , وهم غير مرسلين ولا معصومين ?!

إنها صورة تهز القلب حقا ; ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات , ناظرا إلى قلبه الذي بين جنبيه , وهو في قبضة القاهر الجبار ; وهو لا يملك منه شيئا , وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير !

صورة يعرضها على الذين آمنوا وهو يناديهم: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** . .

ليقول لهم: إن الله قادر على أن يقهركم على الهدى لو كان يريد وعلى الاستجابة التي يدعوكم إليها هذه الدعوة , ولكنه سبحانه يكرمكم ; فيدعوكم لتستجيبوا عن طواعية تنالون عليها الأجر ; وعن إرادة تعلو بها إنسانيتكم وترتفع إلى مستوى الأمانة التي ناطها الله بهذا الخلق المسمى بالإنسان . أمانة الهداية المختارة ; وأمانة الخلافة الواعية , وأمانة الإرادة المتصرفة عن قصد ومعرفة .

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ . فقلوبكم بين يديه . وأنتم بعد ذلك محشورون إليه . فما لكم منه مفر . لا في دنيا ولا في آخره . وهو مع هذا يدعوكم لتستجيبوا استجابة الحر المأجور , لا استجابة العبد المقهور .
ثم يحذرهم القعود عن الجهاد , وعن تلبية دعوة الحياة , والتراخي في تغيير المنكر في أية صورة كان:
﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

والفتنة: الابتلاء أو البلاء . . والجماعة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره وأظلم الظلم نبذ شريعة الله ومنهجه للحياة ولا تقف في وجه الظالمين ; ولا تأخذ الطريق على المفسدين . . جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين . . فالإسلام منهج تكافلي إيجابي لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع (فضلا على أن يروا دين الله لا يتبع ; بل أن يروا ألوهية الله تنكر وتقوم ألوهية العبيد مقامها !) وهم ساكتون . ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة لأنهم هم في ذاتهم صالحون طيبون !
ولما كانت مقاومة الظلم تكلف الناس التكاليف في الأنفس والأموال ; فقد عاد القرآن يذكر العصبة المسلمة التي كانت تخاطب بهذا القرآن أول مرة بما كان من ضعفها وقلة عددها , وبما كان من الأذى الذي ينالها , والخوف الذي يظللها . . وكيف آواها الله بدينه هذا وأعزها ورزقها رزقا طيبا . . فلا تقعد إذن عن الحياة التي يدعوها إليها رسول الله . ولا عن تكاليف هذه الحياة , التي أعزها بها الله , وأعطاها وحماها: **﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾...**

اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحييكم ; واذكروه كي لا تقعدوا عن مكافحة الظلم في كل صوره وأشكاله . . اذكروا أيام الضعف والخوف , قبل أن يوجهكم الله إلى قتال المشركين , وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة وأنتم كارهون . . ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التي انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين . يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله !
ويرسم التعبير مشهدا حيا للقلة والضعف والقلق والخوف: **﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾** . .
وهو مشهد التربص الوجل , والترقب الفزع , حتى لتكاد العين تبصر بالسمات الخائفة , والحركات المفزَّعة , والعيون الزائغة . . والأيدي تمتد للتخطف ; والقلة المسلمة في ارتقاب وتوجس !
ومن هذا المشهد المفزع إلى الأمن والقوة والنصر والرزق الطيب والمتاع الكريم , في ظل الله الذي آواهم إلى حماه:
﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ . .
وفي ظل توجيه الله لهم ليشكروا فيؤجروا: **﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** . .

فمن ذا الذي يتأمل هذه النقلة البعيدة , ثم لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القوية الغنية . . صوت الرسول الأمين الكريم . . ثم من ذا الذي لا يشكر الله على إيوائه ونصره وآلائه , وهذا المشهد وذلك معروضان عليه , ولكـــل منهما إيقاعه وإيحاؤه ?

على أن القوم إنما كانوا يعيشون هذا المشهد وذاك . . كانوا يذكرون بما يعرفون من حالهم في ماضيهم وحاضرهم . . ومن ثم كان لهذا القرآن في حسهم ذلك المذاق . .

والعصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الأرض وفي حياة الناس ; قد لا تكون قد مرت بالمرحلتين , ولا تذوقت المذاقين . . ولكن هذا القرآن يهتف لها بهذه الحقيقة كذلك . ولئن كانت اليوم إنما تعيش في قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ**﴾. .

فأولى لها أن تستجيب لدعوة الحياة التي يدعوها إليها رسول الله ; وأن تترقب في يقين وثقة , موعود الله للعصـــبة المسلمة , موعوده الذي حققه للعصبة الأولى , ووعد بتحقيقه لكل عصبة تستقيم على طريقه , وتصـــبر علـــى تكاليفه . . وأن تنتظر قوله تعالى: ﴿**فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾.

وهي إنما تتعامل مع وعد الله الصادق لا مع ظواهر الواقع الخادع ووعد الله هو واقع العصبة المسلمة الذي يرجح كل واقع !).

الفهرس